وقف لله تعالى
ولا يجوز بيعه

سلسلة
وقفات تربوية
في ضوء القرآن الكريم

المجلد الرابع عشر

يوم تبلى السرائر

[سورة الطارق: ٩]

عبد العزيز بن ناصر الجليل

سلسلة

وقفات تربوية

في ضوء القرآن الكريم

المجلد الرابع عشر

وقف لله تعالى
ولا يجوز بيعه

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
إلا لمن أراد طبعه وتوزيعه
مجانا
بعد أخذ الإذن من المؤلف

الطبعة الأولى
١٤٣٩هـ

رقم الإيداع: ٢٠١٧/١٧٥٠٢

ISBN: 798-977-130-226-8

القسطاوي
للطباعة والتجليد
٠٢٠١٠١٩٩٩٥٠٠

وقف لله تعالى
ولا يجوز بيعه

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

وبعد:

فإن من تأمل الشريعة الإسلامية في مصادرها ومواردها علم ارتباط الأعمال الظاهرة بأعمال القلوب، التي هي الأعمال الباطنة، والتي لا تنفع أعمال الجوارح دون تصحيحها وتطهيرها، فأعمال القلوب وإصلاح السرائر أوجب على العبد من أعمال الجوارح، فبصلاح القلوب والسرائر تصلح الظواهر وبفسادها تفسد. قال ﷺ: **«ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»**[١].

(١) البخاري (٥٢)، مسلم (١٥٩٩).

وهل تتميز حقيقة المؤمن الصادق عن المنافق إلا بما في قلب كل واحد منهما من الأعمال والأحوال، إذ إن عبودية القلب أعظم من عبودية الجوارح، والقلوب هي محل نظر الله ﷻ وبها يتفاضل الناس عند ربهم ﷻ، وعليها مدار القبول أو الرد عند الله ﷻ.

والناس في عنايتهم بالبواطن والظواهر طرفان ووسط:

طرف صرفوا هممهم إلى إصلاح أعمال الجوارح والظواهر وأقاموها على ما جاء عن الله ﷻ وعن رسوله ﷺ مع إهمال منهم وعدم اعتناء بأعمال القلوب والسرائر، فضعفت عبودية قلوبهم.

وطرف صرفوا الهمم إلى أعمال القلوب مع إهمال لأعمال الجوارح فضعفت عبودية جوارحهم أو فسدت.

والوسط: وهم العارفون المؤمنون بربهم ﷻ، المتبعون لنبيهم ﷺ ولطريق السلف الصالح، القائمون لله ﷻ بعبودية الجوارح وعبودية القلوب والسرائر، وقدموا إصلاح السرائر على غيرها وجعلوا الأعمال الظاهرة تبعاً لعبودية القلب، وهذه هي العبودية الصادقة الكاملة.

وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: (وهل الأعمال الخالية عن عمل القلب إلا بمنزلة حركات العابثين وغايتها أن لا يترتب عليها ثواب ولا عقاب. ولما رأى بعض أرباب القلوب طريقة هؤلاء انحرف عنها إلى أن صرف همه إلى عبودية القلب وعطل عبودية الجوارح، وقال: المقصود قيام القلب بحقيقة الخدمة والجوارح تبع. والطائفتان متقابلتان أعظم تقابل. هؤلاء لا التفات لهم إلى عبودية قلوبهم، ففسدت عبودية جوارحهم. والمؤمنون العارفون بالله وبأمره قاموا له بحقيقة العبودية ظاهراً وباطناً، وقدموا قلوبهم في الخدمة، وجعلوا الأعضاء تبعاً لها، فأقاموا الملك وجنوده في خدمة المعبود. وهذا هو حقيقة العبودية)[1].

ومن تأمل أحوال السلف الصالح وجد العناية الشديدة منهم بإصلاح السرائر وتنقيتها من الآفات والشوائب التي تفسدها. والعكس من ذلك حينما ننظر إلى أحوالنا اليوم، حيث الإهمال والغفلة عند كثير من الناس عن القلوب وإصلاحها، ونسيان السرائر وتنقيتها، الأمر الذي ترتبت

---

(١) بدائع الفوائد: (٣/ ١٦٢-١٦٣).

عليه آثار سيئة وأمراض فتاكة في الأمة على مستوى الفرد والجماعة.

والسريرة أمرها عظيم وشأنها خطير ولو كشفت سريرة أحدنا للناس لرأوا التباين بين الظاهر والباطن، ولما استطاع أن يعيش بين الناس وهو مفضوح السريرة. فكيف وهذه السريرة لا تخفى على الله ﷻ ولو خفيت على الناس، حيث السر عنده ﷻ علانية، وخفايا القلوب له بادية، فالحمد لله على ستره.

وقد حذرنا الله ﷻ من يوم تبدو فيه السرائر وتختبر، وتنكشف فيه البواطن وتمتحن، فيظهر ما فيها من الإخلاص والمحبة والصدق واليقين، أو ما يضاد ذلك من النفاق والكذب والرياء، قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٩].

فحريٌّ بمن خاف مقام ربه ﷻ أن يعد لهذا اليوم عدته ويسعى ما دام في زمن المهلة إلى إصلاح سريرته وسلامة قلبه، لعله ينجو من الخزي والفضيحة والعقوبة يوم

القيامـة، لقوله تعـالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

ومـن علامة توفيـق الله ﷻ للعبد أن يوفقـه إلى إصلاح سريرتـه ويشـغله بإصـلاح باطنـه وتطهـيره مـن الآفـات والصفـات الذميمـة: كالحسـد والريـاء والعجـب والكـبر والحرص على الشـهرة والظهور وغير ذلـك من الآفات. ومن علامات حرمان التوفيق للعبد أن ينشـغل بغيره عن نفسه، أو يشغله بإصلاح ظاهره عن إصلاح سريرته.

أهمية الموضوع:

تشـتد الحاجة إلى طرح هـذا الموضوع وتظهـر أهميته من خلال الأمور الآتية:

* الأمر الأول:

انفتـاح أبـواب الفتـن في هذا الزمـان عـلى مصراعيها، سـواء كانت فتن شبهات أو شـهوات، وذلك بما جد في هذا العصر من وسائل متنوعة تفتن الناس عن دينهم، أو من غلبة

الدنيا وشهواتها والتنافس فيها وانفتاحها الشديد على الناس، مما تكدرت بسببه القلوب، وغفلت به عن الآخرة وعشعش فيها آفات كثيرة أفسدت السرائر وأظلمت بسببها البواطن عند كثير من الناس، فهذا آفته الحسد والغل على أخيه أو قريبه المسلم، وآخر آفته الرياء وحب الظهور والمناصب والشهرة، وثالث آفته الكبر والعجب وحب التعالي على الناس. فإذا كان الحذر مطلوباً في كل وقت من الفتن التي تعرض على القلوب وتفسد السرائر، فإن الحذر يجب أن يكون أشد في هذه الأزمنة، التي تموج فيها الفتن كموج البحر، كما يجب أن يتنادى المصلحون والدعاة، ويهتموا بإصلاح ما فسد من السرائر في أنفسهم وفي نفوس من تحت أيديهم من أولادهم وطلابهم، وأن يولوا ذلك العناية الشديدة في مناهج التوجيه والتعليم.

* الأمر الثاني:

إن أساس التفاضل بين العباد في أعمالهم هو ما يقوم في القلوب من سريرة صالحة، تنطلق من الإخلاص والمحبة لله ﷻ، والتعظيم له ﷻ ولأوامره ونواهيه. ولذا قد يشترك

اثنـان في عبـادة واحـدة: كالصدقـة أو الصـلاة أو الصيام أو الحج أو الجهـاد أو الذكر، ويكون بينهـما في الفضل والقبول عند الله ﷻ كما بين السـماء والأرض، وذلك حسب ما قام في السريـرة عند أداء هذه العبـادة. ولذلك يقول ابن القيم رحمه الله تعـالى: (والله يضاعـف ذلك بحسـب حال المنفـق وإيمانه وإخلاصه وإحسانه، ونفع نفقته وقدرها، ووقوعها موقعها، فإن ثواب الإنفاق يتفاوت بحسب ما يقوم بالقلب من الإيمان والإخلاص والتثبيت عند النفقة)[١].

بـل إن المعصيـة قـد تكون كبـيرة أو صغيرة بحسـب ما يقـوم بالقلـب من تعظيـم أمر المعصيـة، والحياء مـن الله ﷻ ، أو عكـس ذلك من الاسـتهانة بالمعصية وقلـة الحياء وعدم المبـالاة، وفي ذلـك يقول ابـن القيم رحمه الله تعـالى: (وهاهنا أمـر ينبغـي التفطن لـه، وهـو أن (الكبيرة) قد يقـترن بها من الحيـاء والخوف والاسـتعظام لهـا ما يلحقهـا بالصغائر. وقد يقترن بالصغيرة مـن قلة الحياء، وعدم المبـالاة، وترك الخوف والاسـتهانة بها ما يلحقها بالكبائر، بل يجعلها في أعلى رتبها،

(١) أعلام الموقعين: (١/ ٢٣٨).

وهـذا أمر مرجعـه إلى ما يقـوم بالقلب. وهو قـدر زائد على مجرد العقل، والإنسان يعرف ذلك من نفسه ومن غيره)[١].

* الأمر الثالث:

بالنظر إلى ما يحصـل اليوم من التفرق والخصومات بين النـاس، ولا سـيما في أوسـاط بعـض الدعاة وطـلاب العلم نجـد أنه في كثير من الأحوال إنما يعـود إلى أهواء في القلوب وفسـاد في السرائر، يخفيها أصحابها ولكنها لا تخفى على علام الغيـوب. فكان لزاماً على المؤمن المتعبـد لربه ﷻ بالدعوة إليه والجهاد في سـبيله أن يحذر هذه الدسـائس الخفية، ويسعى إلى تطهـير القلب منهـا، حتى يكتب لدعوته وجهـاده القبول عند الله ﷻ والأثر الطيب في الواقع بين الناس.

* الأمر الرابـع:

ما ظهر في زماننا من فشـو للشـبهات والشهوات تبث عن طريق وسائل الإعلام المتنوعة ضعف بسببها تعظيم النصوص، والتسـليم لخبر الله ﷻ وأمره في كثير من القلوب، ترتب عليها

---

(١) مدارج السالكين: (١/ ٣٢٨).

آفات قلبية باطنة خطيرة من أخطرها تلك الاعتراضات التي تحيك في الصدور إزاء ما ورد في الكتاب والسنة من أخبار أو أوامر شرعية أو ما يجري في هذا الكون من أقدار الله وأحكامه الكونيـة، فكان لزاماً علينا أن نعتني بسرائرنا وتنقيتها من هذه الاعتراضـات والخواطـر الرديئة التي يعلمهـا علام الغيوب وإن غابـت عـن الناس، وقد تجتـث إيمان العبـد من جذوره والعياذ بالله تعالى.

* الأمر الخامس:

وتـأتي أهميـة السرائـر وأعـمال القلـوب أيضاً مـن كونها الأسـاس في الإيمان والكفر والنفاق، وذلك حسـب ما يقوم في القلـب مـن هذه الأوصـاف. وهذا بدوره يؤثر في حسـن الخاتمة وسـوئها، حيث ترتبط الخاتمة حسـناً وسـوءًا بصلاح السريـرة أو فسـادها، وكـم أقـض حسـن الخاتمـة وسـوؤها مضاجع السـلف! وحريٌّ بأمر هذه خطورته وأهميته أن يهتم به ويطرح للمناصحة والتذكير والمحاسبة.

* **الأمر السادس:**

ومع أهمية هـذا الموضوع في قبول الأعمال أو ردها، وفي حسن الخاتمة وسوئها، وقوة الإيمان من ضعفه، إلا أن الكتابة في هذا الموضوع قليلة ومتناثرة هنا وهناك، كما أن الاهتمام به في حلقات العلـم والدروس والمحاضرات لا يـزال ضعيفاً جـدًّا ولاسيما في أوساط العلوم الأكاديمية والجامعات، حيث ينصـب التركيـز على العلوم المجـردة وملء الأذهـان بها دون العناية بآثارها القلبيـة، وثمارها في صلاح السرائر والظواهر. ولا نبرئ من هذا الإهمال بعض حلق العلم وبرامج التوجيه والتربية المختلفة.

ومـن أجـل هذا ومـا قبله مـن الأمـور التـي ذكرت في أهمية الموضوع تأتي هذه الرسالة من سلسلة الوقفات التربوية في ضـوء القـرآن الكريـم لعلها أن تسـد بعض النقـص في هذا الموضـوع الجلل. نسـأل الله ﷻ أن يصلح ما فسـد مـن قلوبنا وأن يصلح لنا السريرة والعلانية. إنه سميع مجيب

وبعد هذه المقدمة يحسن ذكر أهم فصول الكتاب.

- **الفصل الأول**: المقصود بالسريرة وصلاحها.
- **الفصل الثاني**: الآيات والأحاديث والآثار الواردة في العناية بالسرائر.
- **الفصل الثالث**: من علامات صلاح السريرة وفسادها.
- **الفصل الرابع**: من ثمرات صلاح السريرة.
- **الفصل الخامس**: الأسباب المؤدية إلى صلاح السريرة.
- **الخاتمة**.

الفَصْلُ الأَوَّلُ

المقصود (بالسريرة) وصلاحها

أولاً: تعريف السريرة:

قال في لسان العرب: (السر: من الأسرار التي تكتم. والسر: ما أخفيت، والجمع أسرار، والسريرة كالسر. والجمع السرائر، والسر ما أسررت به. والسريرة: عمل السر من خير أو شر.

وأسر الشيء: كتمه وأظهره، وهو الأضداد. سررته: كتمته. وسررته: أعلنته، والوجهان جميعاً يفسران في قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ﴾ [سبأ: ٣٣])[١].

ومن خلال هذا التعريف نستطيع القول إن:

السريرة: هو ما يكتمه المرء ويخفيه في نفسه من خير أو شر.

---

(١) لسان العرب: (٣/ ١٩٨٩).

ثانياً: السريرة الصالحة:

ورد ذكر السريرة الصالحة في كتاب الله ﷻ باسم (القلب السليم)، تعبيراً بالمحل عن الحال قال الله ﷻ في معرض ذكره لدعاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٧ - ٨٩]. ومدح الله ﷻ خليله بقوله: ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٤].

ولا يكون القلب سليماً والسريرة صالحة حتى يتحلى بصفات ويتخلى عن صفات. يتحلى بالأعمال والاعتقادات القلبية الباطنة التي يحبها الله ﷻ، ويتخلى عن الأعمال القلبية والاعتقادات التي يبغضها الله ﷻ.

يصف الشيخ السعدي رحمه الله تعالى القلب السليم بقوله: (والقلب السليم معناه: الذي سلم من الشرك والشك، ومحبة الشر، والإصرار على البدعة والذنب، ويلزم من سلامته مما ذكر اتصافه بأضدادها من الإخلاص والعلم واليقين ومحبة الخير وتزيينه في قلبه، وأن تكون إرادته ومحبته تابعة لمحبة الله وهواه تابعاً لما جاء عن الله)[1].

---

(١) تفسير السعدي عند قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]

وقد وضع الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى تعريفاً جامعاً مانعاً للقلب السليم ترجع إليه جميع الصفات والأعمال القلبية.

ولأهمية هذا التعريف فقد كرره في أكثر من موطن. في مدارج السالكين وفي كتاب مفتاح دار السعادة، وفي كتابه الفوائد، ومواطن أخرى.

فقال في منزلة (التسليم): (اعلم أن «التسليم» هو الخلاص من شبهة تعارض الخبر، أو شهوة تعارض الأمر، أو إرادة تعارض الإخلاص، أو اعتراض يعارض القدر والشرع. وصاحب هذا التخلص: هو صاحب القلب السليم، الذي لا ينجو يوم القيامة إلا من أتى الله به)[١].

وفي منزلة (المراقبة) وما توجب على العبد قال رحمه الله تعالى: (وهي -أي المراقبة- توجب صيانة الباطن والظاهر. فصيانة الظاهر بحفظ الحركات الظاهرة، وصيانة الباطن بحفظ الخواطر والإرادات والحركات الباطنة التي منها رفض معارضة أمره وخبره، فيتجرد الباطن من كل شهوة

(١) مدارج السالكين: (٢/ ١٤٧).

وإرادة تعارض أمره، ومن كل إرادة تعارض إرادته، ومن كل شبهة تعارض خبره، ومن كل محبة تزاحم محبته. وهذه حقيقة القلب السليم الذي لا ينجو إلا من أتى الله به. وهذا هو حقيقة تجريد الأبرار المقربين العارفين، وكل تجريد سوى هذا فناقص. وهذا تجريد أرباب العزائم)[(١)].

ولو تأملنا سير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لرأينا حياة عظيمة كريمة، ملؤها الطهر والصفاء والتسليم، ومنبعها صلاح السريرة وسلامة القلب المتمثل بتجريد المحبة والتسليم والإخلاص والخوف والرجاء لله ﷻ. وعلى رأس هذه القافلة المباركة من أنبياء الله ﷻ ورسله خليلاه إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام.

وقد قص الله ﷻ علينا في كتابه الكريم نماذج من تسليم إبراهيم عليه السلام لربه، استحق من ربه ﷻ وصفه له بقوله: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٤]. ومن أعظم هذه النماذج ما قصه الله ﷻ عنه عليه الصلاة والسلام حينما أمره بذبح ابنه الحبيب إلى قلبه الذي جاءه في آخر عمره وعلى حين

---

(١) مدارج السالكين: (٢/ ٦٨).

فاقـة وحاجـة للولـد. قـال الله ﷻ: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الصافات: ١٠١-١٠٥]. فظهر من هذه القصة تسليم الأب وابنه عليهما السلام لأمر الله.

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى عن هذا التسليم العظيم من إبراهيم وابنه عليهما الصلاة والسلام: (لقد أسلما.. فهذا هو الإسلام. هذا هو الإسلام في حقيقته. ثقة وطاعة وطمأنينة ورضى وتسليم.. وتنفيذ.. وكلاهما لا يجد في نفسه إلا هذه المشاعر التي لا يصنعها غير الإيمان العظيم.

إنها ليست الشجاعة والجراءة. وليس الاندفاع والحماسة. لقد يندفع المجاهد في الميدان، يقتل ويقتل. ولقد يندفع الفدائي وهو يعلم أنه قد لا يعود، ولكن هذا كله شيء والذي يصنعه إبراهيم وإسماعيل هنا شيء آخر.. ليس هنا دم فائر، ولا حماسة دافعة ولا اندفاع في عجلة تخفي وراءها الخوف من الضعف والنكوص! إنما هو الاستسلام

الواعي المتعقل القاصد المريد، العارف بما يفعل، المطمئن لما يكون. لا بل هنا الرضى الهادىء المستبشر المتذوق للطاعة وطعمها الجميل!

وهنا كان إبراهيم وإسماعيل قد أديا. كانا قد أسلما. كانا قد حققا الأمر والتكليف. ولم يكن باقياً إلا أن يذبح إسماعيل، ويسيل دمه، وتزهق روحه.. وهذا أمر لا يعني شيئاً في ميزان الله، بعدما وضع إبراهيم وإسماعيل في هذا الميزان من روحهما وعزمهما ومشاعرهما كل ما أراده منهما ربهما..)[(١)].

أما خليله نبينا محمد عليه الصلاة والسلام فيكفيه ثناء الله ﷻ له بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤]، وهذا يشمل الأخلاق الباطنة والظاهرة.

ثم يأتي بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في صلاح السريرة وسلامة القلب الصديقون، وعلى رأسهم صديق الأمة الأكبر أبو بكر الصديق رضي الله عنه، الذي ظهر صلاح سريرته وصفاء باطنه في مواطن كثيرة من حياته، منها موقفه من

(١) في ظلال القرآن: (٥/ ٢٩٩٦).

دعـوة النبـي ﷺ ومسـارعته إلى أن يكون مـن أول الداخلين في الإسـلام، ومنها مبادرته رضي الله عنه إلى تصديق الرسـول ﷺ في إسرائـه إلى المسـجد الأقـصى وعروجـه إلى السـماء ورجوعه إلى المدينـة في ليلـة واحـدة في وقت ارتابت فيـه قلوب كثيرة وأجلب المشركون يشككون في صدق الرسول ﷺ.

ومـن أجل هذا التسـليم واليقين، قال أبو بكـر المزني رحمه الله تعالى: (ما فاق أبو بكر رضي الله عنه أصحاب محمد ﷺ بصوم ولا صلاة، ولكـن بشيء كان في قلبـه). قـال ابن علية معلقاً على هذا القول: (الـذي في قلبـه الحـب لله عز وجل والنصيحـة في خلقـه)[1]. ورفعـه بعضهـم بلفظ «مـا فضل أبو بكـر بفضل صـوم ولا صلاة، ولكـن بـشيء وقر في قلبـه» ذكره الغـزالي في الإحيـاء. وقال العراقـي: لم أجـده مرفوعـاً، وهو عنـد الحكيـم الترمذي في النـوادر من كلام بكر بن عبـدالله المزني. وفي لفظ: (ما فاتكم أو فضلكـم أبو بكر بكثير صوم ولا صلاة، ولكن بشيء وقر في صـدره. وكل ذلـك لم يصـح مرفوعـاً، والله الموفق. وقال الفضيـل بن عياض: (ما أدرك عندنا مـن أدرك بكثرة الصلاة

(١) انظر غذاء الألباب: (١/ ٤٨).

والصيام، وإنما أدرك عندنا بسخاء الأنفس وسلامة الصدور والنصح للأمة)[١].

والمقصود مما سبق بيان حقيقة القلب السليم، وحقيقة السريرة الصالحة، وأنها تقوم على التحلي والتخلي. التحلي بالأعمال والاعتقادات القلبية الصالحة التي هي أساس صلاح الأعمال الظاهرة، والتخلي عن الأعمال والاعتقادات القلبية الفاسدة والسلامة من الاعتراضات التي تفسد على القلب تسليمه لخبر الله ﷻ في كتابه وخبر رسوله ﷺ في السنة الصحيحة وتفسد عليه تسليمه لأمر الله ﷻ الشرعي وأمره القدري، وسلامته من الإرادات الفاسدة التي تفسد عليه محبته وإخلاصه وتوكله وخوفه ورجاءه الله تعالى.

وقد فصل الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى أنواع الاعتراضات السارية في قلوب الناس، وذلك بقوله: (و «الاعتراض» ثلاثة أنواع سارية في الناس. والمعصوم من عصمه الله منها.

---

(١) المرجع السابق.

النـوع الأول: الاعـتراض عـلى أسـمائه وصفاته بالشـبه الباطلة، التي يسـميها أربابها قواطـع عقلية. وهي في الحقيقة خيـالات جهليـة، ومحالات ذهنيـة اعترضوا بها على أسـمائه وصفاته ﷻ، وحكموا بها عليه، ونفوا لأجلها ما أثبته لنفسه، وأثبتـه له رسـوله ﷺ، وأثبتـوا ما نفـاه، ووالوا بهـا أعداءه، وعـادوا بها أولياءه، وحرفوا بها الكلم عن مواضعه، ونسـوا بهـا نصيباً كثيراً مما ذُكِّروا بـه، وتقطعوا لها أمرهم بينهم زبرا، كل حزب بما لديهم فرحون.

والعاصم من هذا الاعتراض: التسـليم المحض للوحي. فإذا سـلم القلب له رأى صحة ما جاء به، وأنه الحق بصريح العقـل والفطرة. فاجتمع له السـمع والعقل والفطرة، وهذا أكمـل الإيـمان. ليس كمـن الحربُ قائـم بين سـمعه وعقله وفطرته.

النـوع الثاني: الاعـتراض على شرعـه وأمـره. وأهل هذا الاعتراض ثلاثة أنواع:

أحدهـا: المعترضون عليـه بآرائهم وأقيسـتهم، المتضمنة تحليـل ما حرم الله ﷻ، وتحريـم ما أباحه، وإسـقاط ما أوجبه،

وإيجاب ما أسقطه، وإبطال ما صححه، وتصحيح ما أبطله، واعتبار ما ألغاه، وإلغاء ما اعتبره، وتقييد ما أطلقه، وإطلاق ما قيده.

وهذه هي الآراء والأقيسة التي اتفق السلف قاطبة على ذمها، والتحذير منها. وصاحوا على أصحابها من أقطار الأرض، وحذروا منهم، ونفروا عنهم.

النوع الثاني: الاعتراض على حقائق الإيمان والشرع بالأذواق والمواجيد والخيالات، والكشوفات الباطلة الشيطانية، المتضمنة شرع دين لم يأذن به الله، وإبطال دينه الذي شرعه على لسان رسوله، والتعوض عن حقائق الإيمان بخدع الشيطان، وحظوظ النفوس الجاهلة.

والعجب أن أربابها ينكرون على أهل الحظوظ. وكل ما هم فيه فحظ، ولكن حَظَّهم متضمن مخالفة مراد الله، والإعراض عن دينه، واعتقاد أنه قربة إلى الله. فأين هذا من حظوظ أصحاب الشهوات، المعترفين بذمها، المستغفرين منها، المقربين بنقصهم وعيبهم، وأنها منافية للدين؟.

وهـؤلاء في حظـوظ اتخذوها دينـاً، وقدموها على شرع الله ودينـه. واغتالوا بها القلـوب. واقتطعوها عن طريق الله. فتولد من معقول أولئك، وآراء الآخرين وأقيستهم الباطلة، وأذواق هـؤلاء خراب العالم، وفسـاد الوجود، وهدم قواعد الدين، وتفاقم الأمر وكاد لولا أن الله ضمن أنه لا يزال يقوم به من يحفظه، ويبين معالمه، ويحميه من كيد من يكيد.

النوع الثالث: الاعتراض على ذلك بالسياسات الجائرة، التي لأرباب الولايات التي قدموها على حكم الله ورسـوله، وحكموا بها بين عباده، وعطلوا لها وبها شرعه وعدله وحدوده.

فقال الأولون: إذا تعارض العقل والنقل قدمنا العقل.

وقـال الآخـرون: إذا تعـارض الأثـر والقيـاس قدمنـا القياس.

وقال أصحاب الذوق والكشـف والوجد: إذا تعارض الـذوق والوجـد والكشـف وظاهـر الـشرع قدمنـا الـذوق والوجد والكشف.

وقال أصحاب السياسة: إذا تعارضت السياسة والشرع، قدمنا السياسة. فجعلت كل طائفة قُبالة دين الله وشرعه طاغوتا يتحاكمون إليه.

فهؤلاء يقولون: لكم النقل، ولنا العقل. والآخرون يقولون: أنتم أصحاب آثار وأخبار، ونحن أصحاب أقيسة وآراء وأفكار. وأولئك يقولون: أنتم أرباب الظاهر، ونحن أهل الحقائق. والآخرون يقولون: لكم الشرع. ولنا السياسة. فيالها من بلية، عَمت فأعمَتْ، ورزية رَمَتْ فأصمَت، وفتنة دعت القلوب فأجابها كل قلب مفتون، وأهوية عصفت، فصُمَّت منها الآذان، وعميت بها العيون. عطلت لها -والله- معالم الأحكام، كما نفيت لها صفات ذي الجلال والإكرام. واستند كل قوم إلى ظلم وظلمات آرائهم، وحكموا على الله وبين عباده بمقالاتهم الفاسدة وأهوائهم، وصار لأجلها الوحي عرضة لكل تحريف وتأويل، والدين وقفاً على كل إفساد وتبديل.

الاعتراض الثالث: الاعتراض على أفعاله وقضائه وقدره. وهذا اعتراض الجهال.

وهــو ما بين جلي وخفي، وهو أنواع لا تحصى. وهو ســار في النفــوس سريــان الحمى في بــدن المحموم. ولــو تأمل العبد كلامــه وأمنيتــه وإرادتــه وأحوالــه، لــرأى ذلك في قلبــه عياناً. فكل نفس معترضة على قَدَر الله وقَسْــمه وأفعاله، إلا نفســا قد اطمأنــت إليه، وعرفته حق المعرفة، التــي يمكن وصول البشر إليها. فتلك حظها التسليم والانقياد، والرضى كل الرضا)[١].

---

(١) مدارج السالكين: (٢/ ٦٩-٧٠).

الفَصْلُ الثَّانِي

ذكر بعض الآيات والأحاديث والآثـــار الواردة في العنايـــة بالسرائر

أولاً: ذكر بعض الآيات الواردة في ذلك:

الآية الأولى:

قوله تعـالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٨، ٩].

يقـول الإمـام ابن القيم رحمـه الله تعالى عند هـذه الآية: (قال مقاتل: تظهر وتبـدو. وبلوت الشيء إذا اختبرته ليظهر لـك باطنه، وما خفي منه. والسرائر جمع سريرة، وهي سرائر الله التـي بينه وبـين عبده في ظاهـره وباطنـه لله، فالإيمان من السرائـر، وشرائعـه مـن السرائـر، فتختبر ذلك اليـوم، حتى يظهـر خيرها من شرهـا، ومؤديها من مضيعهـا، وما كان لله ممـا لم يكن له، قال عبدالله بن عمـر ﷺ: يبدي الله يوم القيامة كل سر، فيكـون زينا في الوجوه، وشـيناً فيهـا. والمعنى تختبر

السرائـر بإظهارها، وإظهار مقتضياتها من الثواب والعقاب، والحمد والذم.

وفي التعبـير عن الأعـمال بالسر لطيفة، وهـو أن الأعمال نتائج السرائر الباطنة، فمـن كانت سريرته صالحة كان عمله صالحـاً، فتبدو سريرته على وجهه نوراً وإشراقاً وحياء، ومن كانـت سريرتـه فاسـدة كان عمله تابعـاً لسريرتـه، لا اعتبار بصورته، فتبدو سريرته على وجهه سواداً وظلمة وشيناً، وإن كان الـذي يبدو عليـه في الدنيا إنما هو عمله لا سريرته، فيوم القيامة تبدو عليه سريرته، ويكون الحكم والظهور لها)[١].

ويقـول الطـبري رحمـه الله تعالى عنـد هذه الآيـة: (عن قتـادة ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ إن هذه السرائر مختـبرة فأسروا خيراً أو أعلنوه إن استطعتم ولا قوة إلا بالله)[٢].

ويقـول سـيد قطـب رحمـه الله تعـالى: (إنـه – الله الذي أنشـأه ورعـاه – إنـه لقادر على رجعـه إلى الحيـاة بعد الموت، وإلى التجدد بعد البلى، تشهد النشأة الأولى بقدرته، كما تشهد بتقديـره وتدبيره. فهذه النشـأة البالغة الدقة والحكمة تذهب

(١) بدائع التفسير: (٥/ ٨٥).
(٢) تفسير الطبري: (٢٤/ ٣٥٩).

كلها عبثاً إذا لم تكن هناك رجعة لتختبر السرائر وتجزى جزاءها العادل: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾.. السرائر المكنونة، المطوية على الأسرار المحجوبة.. يوم تبلى وتختبر، وتتكشف وتظهر كما ينفذ الطارق من خلال الظلام الساتر، وكما ينفذ الحافظ إلى النفس الملفعة بالسواتر! كذلك تبلى السرائر يوم يتجرد الإنسان من كل قوة ومن كل ناصر: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾.. ما له من قوة في ذاته، وما له من ناصر خارج ذاته.. والتكشف من كل ستر، مع التجرد من كل قوة، يضاعف شدة الموقف، ويلمس الحس لمسة عميقة التأثير، وهو ينتقل من الكون والنفس، إلى نشأة الإنسان ورحلته العجيبة، إلى نهاية المطاف هناك، حيث ينكشف ستره ويكشف سره، ويتجرد من القوة والنصير)[1].

الآية الثانية:

مر بنا قوله ﷻ عن خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام في دعائه: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٧ ٨٩].

(١) في ظلال القرآن: (٦/ ٣٨٨٠).

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى عند هذه الآية: (ونستشف من قول إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ مدى شعوره بهول اليوم الآخر، ومدى حيائه من ربه، وخشيته من الخزي أمامه، وخوفه من تقصيره. وهو النبي الكريم. كما نستشف من قوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾. مدى إدراكه لحقيقة ذلك اليوم، وإدراكه كذلك لحقيقة القيم. فليست هنالك من قيمة في يوم الحساب إلا قيمة الإخلاص. إخلاص القلب كله لله، وتجرده من كل شائبة، ومن كل مرض، ومن كل غرض، وصفائه من الشهوات والانحرافات. وخلوه من التعلق بغير الله. فهذه سلامته التي تجعل له قيمة ووزناً ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾، ولا ينفع شيء من هذه القيم الزائلة الباطلة التي يتكالب عليها المتكالبون، وهي لا تزن شيئاً في الميزان الأخير)[1].

الآية الثالثة:

قوله تعالى: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [الحج: ٣٧].

---

(١) في ظلال القرآن: (٥/ ٢٦٠٤).

يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى عند هذه الآية: (فالناس يشتركون في الهدايا والضحايا، والله لا يناله الدم المهراق ولا اللحم المأكول، والتصدق به، لكن يناله تقوى القلوب. وفي الأثر: إن الرجلين ليكون مقامهما في الصف واحداً، وبين صلاتهما كما بين المشرق والمغرب. فإذا عرف أن الأعمال الظاهرة يعظم قدرها ويصغر قدرها بما في القلوب، وما في القلوب يتفاضل - لا يعرف مقادير ما في القلوب من الإيمان إلا الله - عرف الإنسان أن ما قاله الرسول كله حق... وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تسبوا أصحابي، فو الذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نصيفه»(١).

وذلك أن الإيمان الذي كان في قلوبهم حين الإنفاق في أول الإسلام وقلة أهله، وكثرة الصوارف عنه، وضعف الدواعي إليه لا يمكن أحداً أن يحصل له مثله ممن بعدهم. وهذا يعرف بعضه من ذاق الأمور، وعرف المحن والابتلاء الذي يحصل للناس، وما يحصل للقلوب من الأحوال المختلفة.

---

(١) البخاري: (٣٦٧٣)، مسلم: (٢٥٤٠).

وهـذا مما يُعرف به أن أبا بكـر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لن يكون أحد مثله، فإن اليقين والإيمان الذي كان في قلبه لا يساويه فيه أحد. قال أبو بكر بن عيَّاش: ما سبقهم أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام، ولكن بشيء وقر في قلبه.

وهكذا سـائر الصحابة حصل لهم بصحبتهم للرسـول، مؤمنـين بـه مجاهديـن معه، إيـمان ويقـين لم يشركهـم فيه من بعدهم)(١).

ويقـول الشـوكاني رحمه الله تعـالى: (أي لـن يصعد إليه ولا يبلـغ رضـاه ولا يقع موقـع القبول منه لحـوم هذه الإبل التي تتصدقون بها، ولا دماؤها التي تنصب عند نحرها، من حيث إنها لحـوم ودماء ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ﴾. أي: يبلغ إليه تقوى قلوبكم، ويصل إليـه إخلاصكم له وإرادتكم بذلك وجهه، فإن ذلك هو الذي يقبله الله ويجازي عليه)(٢).

ومثـل هـذه الآيـة قولـه تعـالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

---

(١) منهاج السنة: (٦/ ٢٢٢-٢٢٣) باختصار.

(٢) فتح القدير: (٣/ ٤٥٥).

الآية الرابعة:

قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٠].

يقول الإمام الطبري رحمه الله تعالى عند هذه الآية: (يقول تعالى ذكره: ودعوا أيها الناس علانية الإثم وذلك ظاهره، وسره وذلك باطنه.

كذلك حدثنا بشر بن معاذ. قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ۚ﴾. أي: قليله وكثيره، وسرّه وعلانيته.

حدثنا محمد بن عبد الأعلى، قال: ثنا محمد بن ثور، عن معمر، عن قتادة ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾. قال: سرّه وعلانيته.

حدثنا ابن حميد، قال: ثنا حكام: عن أبي جعفر، عن الربيع بن أنس، في قوله ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ۚ﴾. يقول: سره وعلانيته، وقوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾. قال: سرَّه وعلانيته)[1].

(١) تفسير الطبري: (٨/ ١٣ ١٤)

ويقول السعدي رحمه الله تعالى عند هذه الآية: (نهى الله ﷻ عباده عن اقتراف الإثم الباطن، والظاهر أي: السر والعلانية المتعلقة بالبدن والجوارح والمتعلقة بالقلب... وكثير من الناس تخفى عليه كثير من المعاصي خصوصاً معاصي القلب: كالكبر والعجب والرياء ونحو ذلك، حتى إنه يكون به كثير منها وهو لا يحس ولا يشعر، وهذا من الإعراض عن العلم وعدم البصيرة)[1].

الآية الخامسة:

قوله ﷻ: ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴾ [العاديات: ٩-١١].

يقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالى عند هذه الآية: (أي هلا علم هذا المغتر ﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ﴾. أي: أخرج الله الأموات من قبورهم لحشرهم ونشورهم، ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ من كمائن الخير والشر، فصار السر علانية والباطن ظاهراً، وبان على وجوه الخلق نتيجة أعمالهم ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ﴾. أي: مطلع على أعمالهم الظاهرة والباطنة الخفية والجلية، ومجازيهم عليها، وخص خُبره بذلك

(١) تفسير السعدي: (ص ٢٧١) المطبوع في مجلد واحد.

اليـوم مـع أنه خبير بهم في كل وقــت، لأن المراد بذلك الجزاء على الأعمال الناشئ عن علم الله واطلاعه)(١).

الآية السادسة:

قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

يقول السعدي رحمه الله تعالى عند هذه الآية: (يخبر تعالى أنه المتفرد بخلق جنس الإنسان ذكورهم وإناثهم، وأنه يعلم أحواله وما يُسرُّه، ويوسـوس في صـدره، وأنه أقرب إليه من حبل الوريد، الذي هو أقرب شيء إلى الإنسـان، وهو العرق المكتنـف لثغـرة النحر، وهـذا مما يدعـو الإنسـان إلى مراقبة خالقه المطلع على ضميره وباطنه، القريب منه في جميع أحواله، فيستحيي منه أن يراه حيث نهاه أو يفقده حيث أمره)(٢).

الآية السابعة:

قولـه ﷻ: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧].

---

(١) تفسير السعدي: (ص ٩٣٣).
(٢) تفسير السعدي: (ص ٨٠٥).

أي: (يعلـم ما خطر على القلـب ﴿وَأَخْفَى﴾ مما لم يخطر يعلم أنه يخطر في وقته وعلى صفته)(١).

الآية الثامنة:

قولـه ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ [الأنبياء: ١١٠].

الآية التاسعة:

قولـه ﷻ: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٩].

يقول السـعدي رحمه الله تعالى عند هذه الآية: (ثم أخبر عـن سـعة علمه لما في النفـوس خصوصاً، ولما في السـموات والأرض عمومـاً، وعـن كمال قدرته، ففيه إرشـاد إلى تطهير القلوب واسـتحضار علم الله كل وقت، فيسـتحي العبد من ربه أن يرى قلبه محلا لكل فكر رديء، بل يشـغل أفكاره فيما يقـرب إلى الله مـن تدبر آية من كتاب، أو سـنة مـن أحاديث

---

(١) المرجع السابق: (ص ٥٠٣).

رسول الله ﷺ، أو تصور وبحث في علم ينفعه أو نصح لعباد الله)[١].

الآية العاشرة:

قولـه ﷻ في وصفه لصاحب السريرة الفاسـدة: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴾ [البقرة: ٢٠٤-٢٠٥].

يقـول سـيد قطب رحمـه الله تعالى عنـد هذه الآيـة: (هذا المخلوق الذي يتحدث، فيصور لك نفسـه خلاصة من الخير، ومـن الإخـلاص، ومن التجـرد، ومن الحب، ومـن الترفع، ومـن الرغبـة في إفاضة الخـير والبر والسـعادة والطهارة على النـاس.. هذا الذي يعجبـك حديثه، تعجبك ذلاقة لسـانه، وتعجبـك نـبرة صوتـه، ويعجبـك حديثـه عـن الخـير والبر والصلاح.. «ويشـهد الله عـلى ما في قلبه».. زيـادة في التأثير والإيحـاء، وتوكيداً للتجـرد والإخلاص، وإظهـاراً للتقوى

---

(١) تفسير السعدي: (ص ١٢٨).

وخشية الله.. «وهو ألد الخصام»! تزدحم نفسه باللدد والخصومة، فلا ظل فيها للود والسماحة، ولا موضع فيها للحب والخير، ولا مكان فيها للتجمل والإيثار.

هذا الذي يتناقض ظاهره وباطنه، ويتنافر مظهره ومخبره.. هذا الذي يتقن الكذب والتمويه والدهان.. حتى إذا جاء دور العمل ظهر المخبوء، وانكشف المستور، وفضح بما فيه من حقيقة الشر والبغي والحقد والفساد: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾.. وإذا انصرف إلى العمل، كانت وجهته الشر والفساد، في قسوة وجفوة ولدد، تتمثل في إهلاك كل حي من الحرث الذي هو موضع الزرع والإنبات والإثمار، ومن النسل الذي هو امتداد الحياة بالإنسال.. وإهلاك الحياة على هذا النحو كناية عما يعتمل في كيان هذا المخلوق النكد من الحقد والشر والغدر والفساد.. مما كان يستره بذلاقة اللسان، ونعومة الدهان، والتظاهر بالخير والبر والسماحة والصلاح.. «والله لا يحب الفساد».. ولا يحب المفسدين الذين ينشئون في الأرض الفساد.. والله لا تخفى عليه حقيقة هذا الصنف من الناس، ولا يجوز عليه الدهان والطلاء الذي قد يجوز على الناس في الحياة

الدنيا، فلا يعجبه من هذا الصنف النكد ما يعجب الناس الذين تخدعهم الظواهر وتخفى عليهم السرائر[(١)].

ثانياً: ذكر بعض الأحاديث الواردة في أهمية السرائر والعناية بها:

- **الحديث الأول**: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم»**، وأشار بأصابعه إلى صدره[(٢)].

قال النووي في شرحه لهذا الحديث: (إن الأعمال الظاهرة لا يحصل بها التقوى، وإنما تحصل بما يقع في القلب من عظمة الله تعالى وخشيته ومراقبته... ومقصود الحديث أن الاعتبار في هذا كله بالقلب)[(٣)].

- **الحديث الثاني**: عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«... ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»**[(٤)].

---

(١) في ظلال القرآن: (١/ ٢٠٤-٢٠٥).

(٢) مسلم: (٢٥٦٤).

(٣) شرح النووي لمسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم ظلم المسلم وخذله.

(٤) البخاري: (٥٢)، مسلم: (١٥٩٩).

قال ابن حجر رحمه الله تعالى عند هذا الحديث: (وخص القلب بذلك لأنه أمير البدن، وبصلاح الأمير تصلح الرعية، وبفساده تفسد، وفيه تنبيه على تعظيم قدر القلب والحث على صلاحه)[١].

وقال ابن رجب رحمه الله تعالى في شرح الحديث: (فإذا صلح القلب صلحت إرادته وصلحت جميع الجوارح، فلم تنبعث إلا إلى طاعة الله واجتناب سخطه، فقنعت بالحلال عن الحرام. وإذا فسد القلب فسدت إرادته ففسدت الجوارح كلها، وانبعث في معاصي الله ﷻ وما فيه سخطه، بل أسرعت في الحرام بحسب هوى القلب وميله عن الحق، فالقلب الصالح هو القلب السليم الذي لا ينفع يوم القيامة عند الله غيره، وهو أن يكون سليماً من جميع ما يكرهه الله من إرادة ما يكرهه الله ويسخطه، ولا يكون فيه سوى محبة الله وإرادته، ومحبته ما يحبه الله وإرادة ذلك وكراهة ما يكرهه الله والنفور عنه. والقلب الفاسد: هو القلب الذي فيه الميل على الأهواء المضلة والشهوات المحرمة، وليس فيه من خشية الله ما يكف الجوارح عن اتباع هوى النفس)[٢].

---

(١) فتح الباري، لابن حجر العسقلاني: (١/ ٨٢).

(٢) فتح الباري، لابن رجب الحنبلي: (١/ ١١٦).

• **الحديث الثالث**: عن أبي قلابة عن عبدالله بن عمر بن الخطاب ﷺ قال: مر عمر بمعاذ بن جبل ﷺ وهو يبكي، فقال: ما يبكيك يا معاذ؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أحب العباد إلى الله تعالى الأتقياء الأخفياء، الذين إذا غابوا لم يفتقدوا، وإذا شهدوا لم يعرفوا، أولئك هم أئمة الهدى ومصابيح العلم**»[1].

• **الحديث الرابع**: عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ التقى هو والمشركون فاقتتلوا، فلما مال رسول الله ﷺ إلى عسكره، ومال الآخرون إلى عسكرهم وفي أصحاب رسول الله ﷺ رجلٌ لا يَدَعُ لهم شاذةً ولا فاذةً إلّا اتبعها يَضربها بسيفه. فقيل: ما أجزَأ منّا اليوم أحدٌ كما أجزأ فلان، فقال رسول الله ﷺ: «**أما إنه من أهل النار**». فقال رجلٌ من القوم: أنا صاحبه. قال فخرج معه كلما وقف وقف معه، وإذا أسرع أسرع معه. قال فجرحَ الرجلُ جُرحاً شديداً، فاستعجَلَ الموت، فوضع سيفه بالأرض وذُبابَهُ بين ثَدْيَيه، ثم تحامل على سيفه فقتل نفسه، فخرج

(١) المستدرك للحاكم، وقال صحيح الإسناد، ولم يخرجاه: (٥١٨٠)، وفي الحلية: (١/ ١٥).

الرجـل إلى رسـول الله ﷺ فقال: أشـهدُ أنك رسـول الله. قـال: وما ذاك؟ قال: الرجل الـذي ذكرت آنفاً أنهُ من أهل النـار، فأعظمَ الناسُ ذلـك، فقلتُ: أنا لكـم به، فخرجتُ في طلبهِ، ثم جُرحَ جُرحاً شـديداً فاستعجل الموتَ، فوضع نصلَ سـيفهِ في الأرض وذُبابَهُ بـين ثَدْيَيْه، ثـم تحامل عليه فقتل نفسـه. فقال رسـول ﷺ عند ذلك: «**إن الرجُلَ ليعملُ عَمـل أهل الجنة فيما يَبدو للناس، وهـو من أهل النار. وإن الرجـل ليعمل عمل أهـل النار فيما يبـدو للناس، وهو من أهل الجنة**»[1].

والشـاهد في هـذا الحديث قولـه: «**إن الرجُـلَ ليعملُ عَمـل أهل الجنة فيما يَبدو للنـاس، وهو من أهل النار. وإن الرجـل ليعمل عمل أهـل النار فيما يبـدو للناس، وهو من أهل الجنة**».

وقـد أورد البخاري رحمـه الله تعالى هذا الحديث أيضاً في كتـاب القدر في بـاب (العمل بالخواتيـم)، وزاد في آخر الحديث: (وإنما الأعمال بالخواتيم).

(١) البخاري: (٤٢٠٢)، ومسلم (١١٢).

وفي هـذا الحديـث دليل على أن العـبرة بصلاح الباطن والسريرة وحسـنهما، لا بصلاح الظاهر فقط، وأنه قد يبدو للنـاس صلاح شـخص في ظاهـره، لكنه يحمل قلبـاً خبيثاً وسريرة فاسـدة، تخذلـه عند الخاتمـة، ويظهرها الله ﷻ عند الموت، فيختم له بها أعاذنا الله من ذلك.

• **الحديـث الخامس:** عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «**تجـد من شرِّ الناس يـوم القيامة عند الله ذا الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه**»[(١)].

يـشرح الحديث ابن حجر في فتح الباري فيقول: (قال القرطبـي: إنما كان ذو الوجهـين شر الناس لأن حاله حال المنافـق، إذ هـو متملق بالباطل وبالكذب، مدخل للفسـاد بـين النـاس. وقـال النووي: هو الـذي يـأتي كل طائفـة بما يرضيهـا. فيظهـر لها أنـــه منها ومخالف لضدهـا، وصنيعه نفاق ومحض كذب وخداع وتحيل على الاطلاع على أسرار الطائفتـين، وهي مداهنة محرمة. قال: فأما من يقصد بذلك الإصـلاح بـين الطائفتين فهو محمـود. وقال غـيره: الفرق بينهـما أن المذموم من يزين لكل طائفـة عملها ويقبحه عند

---

(١) البخاري: (٦٠٥٨)، ومسلم (٢٥٢٦).

الأخـرى ويذم كل طائفة عند الأخـرى، والمحمود أن يأتي لـكل طائفة بكلام فيه صلاح الأخرى ويعتذر لكل واحدة عن الأخرى وينقل إليها ما أمكنه من الجميل ويستر القبيح. ويؤيد هذه التفرقة رواية الإسـماعيلي من طريـق ابن نمـير عـن الأعمش «الـذي يأتي هؤلاء بحديث هؤلاء، وهؤلاء بحديـث هؤلاء» وقال ابن عبدالبر: حمله على ظاهره جماعة وهـو أولى، وتأولـه قـوم على أن المـراد به من يرائـي بعمله فـيرى النـاس خشـوعاً واسـتكانة ويوهمهم أنه يخشـى الله حتـى يكرمـوه وهو في الباطـن بخلاف ذلك، قـال: وهذا محتمـل لو اقتصر في الحديث على صدره فإنه داخل في مطلق ذي الوجهـين. لكن بقيـة الحديث ترد هـذا التأويل، وهي قوله: «يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه»)[١].

• **الحديث السادس:** عن محمود بن لبيد رضي الله عنه قال خرج النبي ﷺ فقال: «**أيها الناس إياكم وشرك السرائر**». قالوا: يا رسـول الله ومـا شرك السرائر؟ قـال: «**يقوم الرجـل فيصلي فيزين صلاتـه جاهـداً لما يـرى من نظـر الناس إليـه، فذلك شرك السرائر**»[٢].

(١) فتح الباري: (١٠/ ٤٩٠).

(٢) صحيح ابن خزيمة: (٩٣٧)، وابن أبي شيبة: (٨٤٠٣).

ثالثاً: الآثار المنقولة عن السلف رحمهم الله تعالى في عنايتهم بالسرائر وخوفهم من فسادها:

• **الأول**: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (القوة في العمل أن لا تؤخر عمل اليوم للغد، والأمانة ألا تخالف سريرة علانية واتقوا الله عز وجل، فإنما التقوى بالتوقي، ومن يتق الله يقه)[١].

• **الثاني**: قال عثمان رضي الله عنه: (ما أسر أحد سريرة إلا أظهرها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه)[٢].

• **الثالث**: قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: (أنتم أطول صلاة وأكثر اجتهادًا من أصحاب رسول الله ﷺ وهم كانوا أفضل منكم، قيل له بأي شيء؟ قال: إنهم كانوا أزهد في الدنيا، وأرغب في الآخرة منكم)[٣].

• **الرابع**: عن مجاهد أن رجلاً قدم على ابن عمر فقال له: كيف أنتم وأبو أنيس الضحاك بن قيس؟ قال: نحن وهو إذا لقيناه قلنا له ما يُحبُّ، وإذا ولَّينا عنه قلنا له غير

---

(١) سير أعلام النبلاء: (٢/ ٥٧٢).

(٢) الآداب الشرعية: (١/ ١٧٧).

(٣) صفة الصفوة: (١/ ٤٢٠).

ذلك، قال: (ذاك ما كنا نعد ونحن مع رسول الله ﷺ من النفاق)[١].

• الخامس: كان أبو الدرداء رضي الله عنه: إذا فرغ من التشهد في الصلاة يتعوذ من النفاق، ويكثر التعوذ منه، فقال له أحدهم: وما لك يا أبا الدرداء أنت والنفاق؟ فقال: (دعنا عنك، فوالله إن الرجل ليقلب عن دينه في الساعة الواحدة فيخلع منه)[٢].

• السادس: قال أبو الدرداء رضي الله عنه: (أضحكني ثلاث وأبكاني ثلاث. أضحكني مؤمل دنيا والموت يطلبه، وغافل وليس بمغفول عنه، وضاحك بملء فيه ولا يدري أأرضى الله أم أسخطه. وأبكاني فراق الأحبة محمد وحزبه، وهول المطلع عند غمرات الموت والوقوف بين يدي الله ﷻ يوم تبدو السريرة علانية، ثم لا أدري إلى الجنة أم إلى النار)[٣].

• السابع: عن أبي البختري عن سلمان رضي الله عنه قال: (إن لكل امرئ جوانيا وبرانياً، فمن يصلح جوانيه يصلح برانيه، ومن يفسد جوانيه يفسد برانيه)[٤].

(١) المطالب العالية: (٣/ ١٨٥).
(٢) سير أعلام النبلاء: (٦/ ٣٨٢).
(٣) الزهد لابن المبارك (٢٥٠): (١/ ٢٦٢).
(٤) الزهد لابن المبارك (١٦٨٢): (٤/ ٣٢٣).

• الثامن: ذكر الإمام البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه قوله: (باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر. وقال إبراهيم التيمي: ما عرضت قولي على عملي إلا خشيت أن أكون مكذباً. وقال ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول إنه على إيمان جبريل وميكائيل. ويذكر عن الحسن: ما خافه إلا مؤمن، ولا أمنه إلا منافق. وما يُحذَر من الإصرار على النفاق والعصيان من غير توبة، لقول الله تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥])[1].

وإتماماً للفائدة أسوق شرح ابن حجر رحمه الله تعالى لهذه الآثار إذ يقول: (قوله: (وقال إبراهيم التيمي) هو من فقهاء التابعين وعبادهم، وقوله «مكذباً» يروى بفتح الذال يعني: خشيت أن يكذبني من رأى عملي مخالفاً لقولي، فيقول: لو كنت صادقاً ما فعلت خلاف ما تقول، وإنما قال ذلك لأنه كان يعظ الناس. ويروى بكسر الذال وهي رواية

(١) البخاري، كتاب الإيمان: (١/ ١٣٥) فتح الباري.

الأكثر، ومعناه أنه مع وعظه الناس لم يبلغ غاية العمل. وقد ذم الله من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر وقصر في العمل، فقال: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣]، فخشي أن يكون مكذباً أي مشابهاً للمكذبين، وهذا التعليق وصله المصنف في تاريخه عن أبي نعيم وأحمد ابن حنبل في الزهد عن ابن مهدي، كلاهما عن سفيان الثوري عن أبي حيان التيمي عن إبراهيم المذكور.

قوله: (وقال ابن أبي مليكة. إلخ) هذا التعليق وصله ابن أبي خيثمة في تاريخه، لكن أبهم العدد. وكذا أخرجه محمد ابن نصر المروزي مطولاً في كتاب الإيمان له، وعينه أبو زرعة الدمشقي في تاريخه من وجه آخر مختصراً كما هنا، والصحابة الذين أدركهم ابن أبي مليكة من أجلِّهم: عائشة وأختها أسماء، وأم سلمة، والعبادلة الأربعة، وأبو هريرة، وعقبة بن الحارث، والمسور بن مخرمة، فهؤلاء ممن سمع منهم، وقد أدرك بالسن جماعة أجلّ من هؤلاء كعلي بن أبي طالب، وسعد بن أبي وقاص، وقد جزم بأنهم كانوا يخافون النفاق في الأعمال، ولم ينقل عن غيرهم

خلاف ذلك فكأنه إجماع، وذلك لأن المؤمن قد يعرض عليه في عمله ما يشوبه مما يخالف الإخلاص. ولا يلزم من خوفهم من ذلك وقوعه منهم، بل ذلك على سبيل المبالغة منهم في الورع والتقوى ﭬ. وقال ابن بطال: إنما خافوا لأنهم طالت أعمارهم حتى رأوا من التغير ما لم يعهدوه، ولم يقدروا على إنكاره، فخافوا أن يكونوا داهنوا بالسكوت)[١].

• **التاسع**: عن بلال بن سعد قال: (لا تكن وليًّا لله في العلانية وعدوه في السريرة)[٢].

• **العاشر**: عن الحسن رحمه الله تعالى قال: (يعد من النفاق اختلاف القول والعمل، واختلاف السر والعلانية، والمدخل والمخرج، وأصل النفاق الذي يبنى عليه النفاق الكذب)[٣].

• **الحادي عشر**: قيل لحمدون بن أحمد: (ما بال كلام السلف أنفع من كلامنا؟ قال: لأنهم تكلموا لعز الإسلام ونجاة

---

(١) فتح الباري: (١/ ١١٠-١١١).
(٢) الإخلاص والنية، لابن أبي الدنيا: (ص ٢٤).
(٣) الصمت، لابن أبي الدنيا: (ص ٢٤٠)(٤٨٤).

النفوس ورضا الرحمن، ونحن نتكلم لعز النفوس وطلب الدنيا ورضا الخلق)[١].

- **الثاني عشر**: عن خالد بن صفوان قال: لقيت مسلمة بن عبدالملك فقال: يا خالد أخبرني عن حسن أهل البصرة قلت: أصلحك الله، أخبرك عنه بعلم، أنا جاره إلى جنبه، وجليسه في مجلسه، وأعلم من قبلي به أشبه الناس سريرة بعلانية، وأشبهه قولاً بفعل، إن قعد على أمر قام به، وإن قام على أمر قعد عليه، وإن أمر بأمر كان أعمل الناس به، وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له، رأيته مستغنياً عن الناس، ورأيت الناس محتاجين إليه. قال: حسبك كيف يضل قوم هذا فيهم[٢].

- **الثالث عشر**: عن الحسن رحمه الله تعالى قال: ابن آدم لك قول وعمل، وعملك أولى بك من قولك، ولك سريرة وعلانية، وسريرتك أولى بك من علانيتك[٣].

---

(١) صفة الصفوة: (٤/ ١٢٢).
(٢) سير أعلام النبلاء: (٤/ ٥٧٦).
(٣) مدارج السالكين: (١/ ٤٣٦).

- **الرابع عشر**: عن ابن عيينة رحمه الله تعالى قال: (إذا وافقت السريرة العلانية فذلك العدل، وإذا كانت السريرة أفضل من العلانية فذلك الإحسان وإذا كانت العلانية أفضل من السريرة فذلك الظلم)[١].

- **الخامس عشر**: عن نعيم بن حماد قال سمعت ابن المبارك يقول: (ما رأيت أحداً ارتفع مثل مالك، ليس له كثير صلاة ولا صيام، إلا أن تكون له سريرة)[٢].

- **السادس عشر**: عن القاسم بن محمد قال: كنا نسافر مع ابن المبارك فكثيراً ما كان يخطر ببالي فأقول في نفسي: بأي شيء فضل هذا الرجل علينا، حتى اشتهر في الناس هذه الشهرة، إن كان يصلي إنا لنصلي، ولئن كان يصوم إنا لنصوم، وإن كان يغزو فإنا لنغزو، وإن كان يحج إنا لنحج.

قال: فكنا في بعض مسيرنا في طريق الشام ليلة نتعشى في بيت إذ طفئ السراج، فقام بعضنا فأخذ السراج وخرج يستصبح فمكث هنيهة ثم جاء بالسراج، فنظرت

(١) تفسير الطبري: (١٣/ ١٦٣).
(٢) سير أعلام النبلاء: (٨/ ٩٧).

إلى وجه ابن المبارك ولحيته قد ابتلت من الدموع، فقلت في نفسي: بهذه الخشية فضل هذا الرجل علينا، ولعله حين فقد السراج فصار إلى الظلمة ذكر القيامة[١].

• **السابع عشر**: عن عقيل بن مغفل بن منبه قال سمعت عمي وهب بن منبه يقول: (يا بني اخلص طاعة الله بسريرة ناصحة يصدق الله فيها فعلك في العلانية، فإن من فعل خيراً ثم أسره إلى الله فقد أصاب موضعه وأبلغه قراره، وان من أسر عملاً صالحاً لم يطلع عليه أحد إلا الله فقد اطلع عليه من هو حسبه، واستودعه حفيظاً لا يضيع أجره، فلا تخافن على عمل صالح أسررته إلى الله عز وجل ضياعاً، ولا تخافن من ظلمه ولا هضمه، ولا تظنن أن العلانية هي أنجح من السريرة، فإن مثل العلانية مع السريرة، كمثل ورق الشجر مع عرقها، العلانية ورقها، والسريرة عرقها، إن نخر العرق هلكت الشجرة كلها ورقها وعودها، وإن صلحت صلحت الشجرة كلها ثمرها وورقها، فلا يزال ما ظهر من الشجرة في خير ما كان عرقها مستخفيا لا يرى منه شيء. كذلك الدين لا يزال صالحاً ما كان له

(١) صفة الصفوة: (٤/ ١٤٥).

سريـرة صالحة يصدق الله بهـا علانيته، فـإن العلانية تنفع مع السريرة الصالحة كما ينفع عرق الشجرة صلاح فرعها، وإن كان حياتهـا من قبل عرقها فـإن فرعها زينتها وجمالها، وإن كانـت السريـرة هي ملاك الديـن فـإن العلانية معها تزين الدين وتجمله، إذا عملها مؤمن لا يريد بها إلا رضاء ربه ﷻ)[1].

• **الثامـن عـشر**: عـن المعتمـر بن سـليمان عن أبيه قـال: (إن الرجل ليذنب الذنب في السر فيصبح عليه مذلته)[2].

• **التاسـع عشر**: قال أبو عبيد السري: (النفاق خبث السريرة، فاتـق الله ﷻ أن يـرى النـاس أنـك تخشـى الله ﷻ وقلبـك فاجر)[3].

• **العشرون**: قال الحسن: (ذم الرجل لنفسه في العلانية مدح لها في السريرة، وقالوا: من أظهر عيب نفسه فقد زكاها)[4].

---

(١) حلية الأولياء: (٤/ ٦٩-٧٠).
(٢) أسباب العقوبات وأنواعها، لابن أبي الدنيا: (ص ٥٨).
(٣) تاريخ دمشق: (٥/ ٨٦).
(٤) العقد الفريد: (١/ ٣٣٣).

• **الواحد والعشرون:** عن قتادة رحمه الله تعالى قال: (والله إن عليك يا ابن آدم لشهودًا من ربك فراقبهم، وآثر الله في سرائرك وعلانيتك، فإنه لا يخفى عليه خافية الظلمة عنده ضوء، والسر عنده علانية)[١].

• **الثاني والعشرون:** عن الربيع بن خثيم أنه كان يقول: (السرائر السرائر اللاتي يخفين على الناس وهي عند الله بواد. قال: ويقول: التمسوا دواءهن. قال ويقول: ودواؤهن أن تتوب ولا تعود)[٢].

• **الثالث والعشرون:** كان الشافعي رحمه الله تعالى يقول: (ينبغي للعالم أن يكون له خبيئة من العمل الصالح فيما بينه وبين الله ﷻ، ولا يعتمد على العلم فقط، فإنه قليل الجدوى في الآخرة)[٣].

• **الرابع والعشرون:** عن سلام بن أبي مطيع قال: (ما كان يونس بن عبيد بأكثرهم صلاة ولا صوماً، ولكن والله ما حضر حق من حقوق الله إلا وهو متهيء له)[٤].

---

(١) العظمة، لأبي الشيخ: (١/ ١٨٠).
(٢) الزهد، للإمام أحمد: (٥/ ٤٨).
(٣) العهود المحمدية: (١/ ٢٦٦).
(٤) حلية الأولياء: (٣/ ١٩).

- **الخامس والعشرون:** قال يحيى بن معاذ: (النسك هو العناية بالسرائر، وإخراج ما سوى الله ﷻ من القلب)[١].

- **السادس والعشرون:** عن الفضيل بن عياض قال: (لم يدرك عندنا من أدرك بكثرة صيام ولا صلاة، وإنما أدرك بسخاء الأنفس وسلامة الصدور والنصح للأمة)[٢].

- **السابع والعشرون:** يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: (فكل محبة لغيره فهي عذاب على صاحبها وحسرة عليه إلا محبته ومحبة ما يدعو إلى محبته، ويعين على طاعته ومرضاته، فهذه هي التي تبقى في القلب يوم تبلى السرائر)[٣].

---

(١) ذم الهوى، لابن الجوزي: (ص ٦٩).
(٢) الحلية: (٨/ ١٠٣).
(٣) روضة المحبين: (ص ٢٨٠).

الفَصْلُ الثَّالِثُ

من علامات صلاح السريرة وفسادها

إن صـلاح السرائـر وفسـادها أمـر لا يعلمـه على وجه القطـع إلا عـلاَّم الغيـوب، ولكـن الله ﷻ جعـل علامـات لصلاح السريرة وفسادها، تظهر على العبد يعرفها من نفسه، وتكون للناس بمثابة القرائن التي تعكس لهم سرائر الغير.

قال الله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ﴾ [محمد: ٢٦].

وفي هـذا الفصل سـيكون الكلام عـن بعض العلامات التي تدل على صلاح السريرة وعكسها يدل على فسادها، مع الانتبـاه إلى أن أحـداً لا يعلم حقيقة السرائـر إلا الله ﷻ، فقد يظهر بعض المظاهر الطيبة من شـخص فاسـد السريرة، وقد تظهر بعض المظاهر السيئة من شخص صالح السريرة ولكن هـذا قليـل، لأن الغالب أن صـلاح الباطن يقـود إلى صلاح الظاهر، وفساد الباطن يقود إلى فساد الظاهر.

ومن هذه العلامات ما يلي:

العلامة الأولى: الإخلاص والصدق:

يعد الإخلاص عمدة أعمال القلوب، وأساس صلاح السريرة، حيث إن جل الأعمال القلبية المحبوبة لله ﷻ تعود إلى صفة الإخلاص. إن قيمة الإخلاص ومكانته العظيمة تظهر في كون التفاضل بين الأعمال والثواب عليها عند الله ﷻ تكون على قدر الإخلاص وتحقيقه في الأعمال، وقد بيَّن الصحابي الجليل أبو ذر رضي الله عنه هذه الحقيقة بقوله: (يا حبذا نوم الأكياس وإفطارهم، كيف يغبنون سهر الحمقى وصيامهم. ولمثقال ذرة من صاحب تقوى ويقين أعظم وأفضل وأرجح من أمثال الجبال عبادة من المغترين)[1]. وسبق أن مر بنا قوله ﷻ: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]. وإن ركعة من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أفضل من مئات الركعات من غيرهم، وقيام ليلة منهم أفضل من قيام الليالي الكثيرة من غيرهم، لما في عبادة الأنبياء من كمال التعظيم والإجلال والإخلاص

(١) الزهد، للإمام أحمد: (١٧١).

والخشوع ما ليس عند غيرهم. قال مطرف بن عبدالله: (إنك لتلقى الرجلين أحدهما أكثر صوماً وصلاة وصدقة والآخر أفضل منه بونا بعيداً، قيل له: وكيف ذلك؟ فقال: هو أشدهما ورعاً عن محارمه)[١].

ويقول شيخ الإسلام: (والعبد قد يأتي بالحسنة بنية وصدق وإخلاص تكون أعظم من أضعافها)[٢]، وقال ابن المبارك: (رب عمل صغير تعظمه النية، ورب عمل كبير تصغره النية)[٣].

والإخلاص عمل قلبي باعثه معرفة الله ﷻ بأسمائه وصفاته، التي تثمر محبة الله ﷻ والخوف منه وتعظيمه ورجاءه واليقين بوعده ووعيده. فإذا تمكنت هذه الأعمال الجليلة من القلب قادته إلى العبودية الصادقة لله ﷻ وتوحيده لا شريك له، وأصبح الباعث لجميع الأعمال والأقوال والأحوال الظاهرة هو إرادة وجه الله ﷻ والدار الآخرة، وسلم من الأعراض الدنيوية التي تكون باعث بعض الناس إلى بعض

(١) الزهد، لابن أبي عاصم: (٢٤٠).

(٢) مجموع الفتاوى: (١١/ ٦٦٠).

(٣) جامع العلوم والحكم: (١/ ٧١).

العبوديات كقصد الرياء والسمعة والظهور بين الناس، ولا يخفى ما يترتب على ذلك من آفات أخرى: كالكبر والعجب والحسد وغيرها، نسأل الله العافية من ذلك.

ولست هنا بصدد التوسع في مسألة الإخلاص وأدلته من الكتاب والسنة، فإن هذا قد كتب فيه الكثير من الكتب والرسائل، وإنما المقصود التأكيد على أهمية هذا العمل القلبي وأثره العظيم في صلاح السريرة وأثر ضعفه في فسادها، ولذا سيكون التركيز في هذا المبحث إن شاء الله تعالى على معرفة بعض علامات الإخلاص التي بدورها تقودنا إلى معرفة بعض علامات صلاح السريرة، ويحسن بنا قبل ذكر هذه العلامات ذكر بعض التعاريف التي تناقلها السلف عن الإخلاص.

وقد ذكر طائفة منها الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في منزلة الإخلاص إذ يقول: (وقد تنوعت عبارتهم في الإخلاص والصدق، والقصد واحد.

فقيل: هو إفراد الحق ﷻ بالقصد في الطاعة.

وقيل: تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين.

وقيل: التوقي من ملاحظة الخلق حتى عن نفسك، و«الصدق» التنقي من مطالعة النفس، فالمخلص لا رياء له، والصادق لا إعجاب له. ولا يتم الإخلاص إلا بالصدق، ولا الصدق إلا بالإخلاص، ولا يتمان إلا بالصبر.

وقيل: الإخلاص استواء أعمال العبد في الظاهر والباطن. والرياء أن يكون ظاهره خيراً من باطنه. والصدق في الإخلاص: أن يكون باطنه أعمر من ظاهره.

وقيل: الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق، ومن تزين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله.

وقيل لسهل: أي شيء أشد على النفس؟ فقال: الإخلاص، لأنه لا حظ للنفس فيه.

وقال يوسف بن الحسين: أعز شيء في الدنيا: الإخلاص، وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي، فكأنه ينبت على لون آخر)[1].

(١) مدارج السالكين: (٢/ ٩٠-٩١).

ومـن علامـات الإخلاص التـي يعرف بهـا العبد صلاح سريرته ما يلي:

أولاً: ابتغاء وجه الله ﷻ والخلوص من الرياء:

أثنـى الله ﷻ عـلى عبـاده المخلصـين بقوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٨-٩].

ويتحقـق الإخـلاص في القلب بالتخلـص من أعراض الرياء الثلاثة، ألا وهي:

١- جلب المصالح الدنيوية بعمله الأخروي.

٢- دفع المضار الدنيوية بعمله الأخروي.

٣- التعظيم والشهرة بين الناس وحب الثناء منهم.

وبتخلـص العبـد من هـذه الأعراض يتخلـص من آفة الريـاء المسـخوطة لله ﷻ. وإن أشـد هـذه الأعـراض تخلصـاً منهـا حب التعظيم والشـهرة بـين الناس، ولقـد كان من دأب الصالحـين مجاهدة النفس بالفرار من مـدح الناس وتعظيمهم وكراهية الظهور بينهم.

وهذا من علامـات المخلصين لربهم ﷻ، حيث يكفيهم علـم الله ﷻ بهـم، ورجاء ثوابـه على أعمالهـم، وأمثال هؤلاء تراهـم يزهدون في مـدح الناس والظهور فيهـم، لا يبحثون عنهـا بل يكرهونها، ويودون أنهم في غبراء الناس، وأن أحداً لم يطلـع على أعمالهـم إلا الله ﷻ، ومع ذلـك فيأبى الله ﷻ إلا أن يظهر أحوالهم، ويعلي ذكرهم وشـأنهم بين الناس، ويضع حبهم في قلوب عباده.

عن سـعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسـول الله ﷺ: «**إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي**»[١].

وأسـوق فيـما يـلي بعض النـماذج مـن أحوال السـلف في كراهتهم للشهرة والظهور.

حديث أويس القرني: عن زرارة بن أوفى، عن أسـير بن جابـر، قال: كان عمـر بن الخطاب، إذا أتـى عليه أمداد أهل اليمن، سألهم: أفيكم أويس بن عامر؟ حتى أتى على أُويس. فقـال: أنت أُويس بن عامر؟ قـال: نعم. قال من مُرادٍ ثم من قَرنٍ؟ قال: نعم. قال: فكان بك بَرَص فبرأت منه إلا موضع

(١) صحيح مسلم: (٢٩٦٥).

درهم؟ قال: نعم. قال: لك والدةٌ؟ قال: نعم. قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **«يأتي عليكم أُويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مُـرَادٍ، ثم من قَرَنٍ. كان به برصٌ فبرأ منه إلا موضع درهم. له والدة هو بها بَرٌّ. لو أقسم على الله لأبَرهُ. فإن استطعت أن يستغفر لَكَ فافعل»** فاستغفر لي. فاستغفر له.

فقال له عمر: أين تريد؟ قال: الكوفة. قال: ألا أكتُبُ لك إلى عاملها؟ قال: أكون في غَبْراء الناس أحبُّ إلي.

قال: فلما كان من العام المقبل حج رجلٌ من أشرافهم، فوافق عمر. فسأله عن أويس. قال: تركته رث البيت قليل المتاع. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«يأتي عليكم أُويس ابن عامر مع أمداد أهل اليمن من مُرَادٍ، ثم من قَرَنٍ. كان به برصٌ فبرأ منه. إلا موضع درهم. له والدة هو بها بَرٌّ. لو أقسم على الله لأبَرهُ. فإن استطعت أن يستغفر لَكَ فافعل»** فأتى أويْسا فقال: استغفر لي. قال: أنت أحدث عهداً بسفر صالح. فاستغفر لي. قال: استغفر لي. قال أنت أحدثُ عهداً بسفر صالح. فاستغفر لي. قال: لقيت عُمر؟ قال: نعم. فاستغفرَ له. ففطن له الناسُ. فانطلق على وجهه)[1].

(١) صحيح مسلم: (٢٥٤٢).

قال الشافعي رحمه الله تعالى: (وددت أن الخلق يتعلمون هذا العلم ولا ينسب إليَّ منه شيء)[١].

وعن سفيان الثوري رحمه الله تعالى أنه كتب إلى أخ له: (واحذر حب المنزلة، فإن الزهادة فيها أشد من الزهادة في الدنيا)[٢].

وعن إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى قال: (لم يصدق الله من أحب الشهرة)[٣].

وكان خالد بن معدان رحمه الله تعالى (إذا عظمت حلقته قام وانصرف كراهة الشهرة)[٤].

وقال الزهري رحمه الله تعالى: (ما رأينا الزهد في شيء أقل منه في الرياسة. ترى الرجل يزهد في المطعم والمشرب والمال، فإذا نوزع الرياسة حامى عليها وعادى)[٥].

---

(١) حلية الأولياء: (٩/ ١١٨).
(٢) المصدر السابق: (٦/ ٣٨٧).
(٣) حلية الأولياء: (٨/ ١٩).
(٤) مختصر منهاج القاصدين: (ص ٧٦).
(٥) المصدر السابق: (ص ٢٠٩).

فإن قيل: هذا فيه فضيلة الخمول، وذم الشهرة، وأي شهرة أكثر من شهرة الأنبياء، وأئمة العلماء.

قلنا: المذموم طلب الإنسان الشهرة، وأما وجودها من جهة الله تعالى من غير طلب الإنسان فليس بمذموم، غير أن في وجودها فتنة على الضعفاء[١].

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى علاجاً لحب المدح وثناء الناس، فقال: (لا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس إلا كما يجتمع الماء والنار والضب والحوت، فإذا حدثتك نفسك بطلب الإخلاص فاقبل على الطمع أولاً فاذبحه بسكين اليأس واقبل على المدح والثناء فازهد فيهما زهد عشاق الدنيا في الآخرة، فإذا استقام لك ذلك الطمع والزهد في الثناء والمدح سهل عليك الإخلاص.

فإن قلت: وما الذي يسهل عليّ ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح؟ قلت: أما ذبح الطمع فيسهله عليك علمك يقيناً أنه ليس من شيء يطمع فيه إلا وبيد الله وحده خزائنه لا يملكها غيره، ولا يؤتي العبد منها شيئاً سواه. وأما الزهد في

(١) المصدر السابق: (ص ٢١٠).

الثناء والمدح فيسهله عليك علمك أنه ليس أحد ينفع مدحه ويزين ويضر ذمه ويشين إلا الله وحده)[(١)].

ويعلق الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى على ما كتبه عمر ابن الخطاب رضي الله عنه في خطابه إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه فيقول (وقوله: (ومن تزين بما ليس فيه شانه الله) لما كان المتزين بما ليس فيه ضد المخلص فإنه يظهر للناس أمراً وهو في الباطن بخلافه، عامله الله بنقيض قصده، فإن المعاقبة بنقيض القصد ثابتة شرعاً وقدراً، ولما كان المخلص يُعجل له من ثواب إخلاصه الحلاوةُ والمحبة والمهابة في قلوب الناس عُجل للمتزين بما ليس فيه من عقوبته أنْ شانه الله بين الناس، لأنه شانَ باطنَه عند الله، وهذا موجب أسماء الرب الحُسْنَى، وصفاته العليا، وحكمته في قضائه وشرعه.

هذا ولما كان من تزين للناس بما ليس فيه من الخشوع والدين والنُّسُك والعلم وغير ذلك قد نصب نفسه للوازم هذه الأشياء ومقتضياتها، فلابد أن تطلب منه، فإذا لم توجد عنده افتضح، فشينه ذلك من حيث ظن أنه يزينه.

---

(١) الفوائد: (١٥٠).

وكان بعض الصحابة يقول: أعوذ بالله من خشوع النفاق، قالوا: وما خشوع النفاق؟ قال: أن ترى الجسد خاشعاً والقلب غير خاشع. وأساس النفاق وأصله هو التزيُّن للناس بما ليس في الباطن من الإيمان، فعلم أن هاتين الكلمتين من كلام أمير المؤمنين مشتقة من كلام النبوة، وهما من أنفع الكلام وأشفاه للسقام.

وأيضاً فإنه أخفى عن الناس ما أظهر لله خلافه، فأظهر الله من عيوبه للناس ما أخفاه عنهم جزاء له من جنس عمله)(١).

ومما له صلة بكراهية الشهرة والظهور ما نقل عن بعض الصحابة رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان من كراهيتهم للفتيا وتدافعهم لها بينهم. قال عبدالرحمن بن أبي ليلى رحمه الله تعالى: (أدركت في هذا المسجد مائة وعشرين من أصحاب رسول الله ﷺ، ما أحد يسأل عن حديث أو فتوى إلا ود أخاه كفاه ذلك. ثم قد آل الأمر إلى إقدام أقوام يدعون العلم اليوم يقدمون على جواب في مسائل لو عرضت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه لجمع أهل بدر واستشارهم)(٢).

---

(١) أعلام الموقعين: (٢/ ١٦٨-١٦٩).

(٢) مختصر منهاج القاصدين: (١٦).

وذكـر ابن القيـم أن رجـلاً رأى (ربيعة الـرأي) يبكي، فقـال: مـا يبكيـك؟ فقال: (استفتي مـن لا علم لـه، وظهر في الإسـلام أمر عظيم. قـال: ولبعض من يفتـي هاهنا أحق بالسجن من السراق)[1].

ثم نقل ابن القيم رحمه الله تعالى عن بعض العلماء قولهم: (فكيف لو رأى ربيعة زماننا وإقدام من لا علم عنده على الفتيا وتوثبه عليها، ومد باع التكلف إليها، وتسلقه بالجهل والجرأة عليها مع قلة الخبرة وسوء السيرة وشؤم السريرة)[2].

ومـن دقائق حـب الشـهرة والظهـور ما ذكـره صاحب الإحيـاء، ونقله المقدسي من كتابه مختـصر منهاج القاصدين، حيـث يقـول: (وأخفى مـن ذلـك أن يختفي بحيـث لا يريد الاطـلاع عليـه، ولكنـه مـع ذلـك إذا رأى النـاس أحب أن يبدؤوه بالسلام، وأن يقابلوه بالبشاشة والتوقير، وينشطوا في قضاء حوائجه، ويسامحوه في المعاملة، ويوسعوا له المكان، فإن قصر في ذلك مقصر، ثقل ذلك على قلبه، كأن نفسـه تتقاضى الاحترام على الطاعة التي أخفاها.

(١) أعلام الموقعين: (٤/ ٢٠٧).
(٢) أعلام الموقعين: (٤/ ٢٠٧).

وقد روينا عن وهب بن منبه، أن رجلاً من العُبَّاد قال لأصحابه: إنا قد فارقنا الأموال والأولاد مخافة الطغيان، وإنا نخاف أن يكون قد دخل علينا في أمرنا من هذا الطغيان أكثر مما دخل على أهل الأموال في أموالهم، إن أحدنا إذا لقي أحب أن يعظم لمكان دينه، وإن كان له حاجة أحب أن تقضى لمكان دينه، وإن اشترى شيئاً أحب أن يرخص له لمكان دينه)(١).

ومن دقائق الإخلاص ما ذكره الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله تعالى في كتاب التوحيد عند قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨]. إذ يقول (المسألة الثانية: التنبيه على الإخلاص، لأن كثيراً لو دعا إلى الحق فهو يدعو إلى نفسه)(٢).

ويا لها من مسألة عظيمة يغفل عنها كثير منا، فإن من الإخلاص أن تكون دعوة المرء إلى الله وابتغاء وجهه، وليس إلى نفسه وتعظيم ذاته وإشهارها بين الناس، والتفاف الناس

---

(١) مختصر منهاج القاصدين: (ص ٢١٩).
(٢) كتاب التوحيد (باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله).

حولـه، وحـب الصـدارة بينهـم، وعـدم رؤية الخـير في عمل الآخرين.

ومـن دقائـق الريـاء ما ذكره ابـن رجب رحمـه الله تعالى بقوله: (وربما أظهروا بألسـنتهم ذم أنفسـهم واحتقارها على رؤوس الأشـهاد، ليعتقـد النـاس فيهـم أنهـم عند أنفسـهم متواضعـون، فيمدحون بذلـك وهو من دقائق أبـواب الرياء كما نبه عليه التابعون فمن بعدهم من العلماء ويظهر منهم من قبول المدح واستجلابه مما ينافي الصـدق والإخلاص. فإن الصادق يخاف النفاق على نفسه ويخشى على نفسه سوء الخاتمة فهو في شغل عن قبول المدح واستحسانه)[١].

ثانياً: المحبة لعمل الخلوة والخبيئة الصالحة:

وهذا من أبرز علامات الإخلاص وصلاح السرائر. فما زال المخلصون يحرصون على إخفاء صالح أعمالهم من غير الفرائض رجـاء محبـة الله ﷻ لهم وقبـول أعمالهم عنده ﷻ، مسـتحضرين قوله ﷺ: «**إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي**»[٢].

(١) فضل علم السلف على الخلف: (ص ٨).
(٢) مسلم: (٢٩٦٥).

وجاء عن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال: (اجعلوا لكم خبيئة من العمل الصالح، كما أن لكم خبيئة من العمل السيء).

وقد كان ذلك هدياً بيناً للسلف الصالح، ومن ذلك قول الخريبي: (كانوا يستحبون أن يكون للرجل خبيئة من عمل صالح لا تعلم به زوجته ولا غيرها)[١].

ويقول القرطبي عند قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[الصافات: ١٤٣-١٤٤].

قلت: ومن هذا المعنى قوله ﷺ: «**من استطاع منكم أن تكون له خبيئة من عمل صالح فليفعل**»[٢]، فيجتهد العبد، ويحرص على خصلة من صالح عمله، يخلص فيها بينه وبين ربه، ويدّخرها ليوم فاقته وفقره، ويخبؤها بجهده، ويسترها عن خلقه، يصل إليه نفعها أحوج ما كان إليه)[٣].

يتحدث الأستاذ خالد روشة عن الخبيئة الصالحة فيقول: (زورق من ركبه نجا، وعبادة من اعتادها طهر قلبه وهذب

(١) سير أعلام النبلاء: (٩/ ٣٤٩).

(٢) مسند الشهاب: (١/ ٢٦٧)، والصحيح وقفه على الزبير بن العوام.

(٣) تفسير القرطبي: (١٥/ ١٢٧).

نفسه وعودها الإخلاص، إنما العبادة في السر والطاعة في الخفاء، حيث لا يعرفك أحد، ولا يعلم بك أحد غير الله ﷻ، فأنت عندئذ تقدم العبادة له وحده غير عابئ بنظر الناس إليك، وغير منتظر لأجر منهم مهما قل أو كثر. وهي وسيلة لا يستطيعها المنافقون أبداً، وكذلك لا يستطيعها الكذابون لأن كلا منهما بنى أعماله على رؤية الناس له، وإنما هي من أعمال الصالحين فقط.

إن أعمال السر لا يثبت عليها إلا الصادقون، فهي زينة الخلوات بين العبد وبين ربه، ولكن في وقت قل فيه عمل السر، أو كاد أن ينسى، ينبغي على الحركة الإسلامية إحياء معناه، علماً وعملاً، وينبغي على شباب الصحوة الإسلامية تربية أنفسهم عليه.

وليعلم كل امرئ أن الشيطان لا يرضى ولا يقر إذا رأى من العبد عمل سر أبداً، وإنه لن يتركه حتى يجعله في العلانية، ذلك لأن أعمال السر هي أشد أعمال على الشيطان، وأبعد أعمال عن مخالطة الرياء والعجب والشهرة، وإذا انتشرت أعمال السر بين المسلمين ظهرت البركة وعم الخير بين الناس، وإن ما نراه من صراع على الدنيا سببه الشح الخارجي والشح الخفي، فأما الأول فمعلوم، وأما الثاني

فهـو البخـل بالطاعـة في الـسر، إذ إنها لا تخـرج إلا من قلب كريـم قد ملأ حـب الله سـويداءه، وعمت الرغبـة فيما عنده أرجاءه، فأنكر نفسـه في سـبيل ربه، وأخفى عمله يريد قبوله من مولاه، فأحبب بهذي الجوارح المخلصة والنفوس الطيبة الصافية النقية التي تخفي عن شمالها ما تنفق يمينها)[١].

وقـد نقل الإمام ابـن كثير رحمه الله تعـالى بعض أحوال السـلف في إخفـاء أعمالهم وذلـك عند قولـه تعالى: ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [الأعـراف: ٥٥]. فقـال: (وقال عبدالله بن المبارك، عن المبارك بن فضالة، عن الحسـن قال: إن كان الرجل لقد جمع القرآن، وما يشـعر بـه النـاس. وإن كان الرجل لقد فَقُه الفقه الكثير، وما يشـعر بـه النـاس. وإن كان الرجل ليصـلي الصلاة الطويلـة في بيته وعنـده الزور وما يشـعرون به. ولقـد أدركنا أقوامـاً ما كان عـلى الأرض من عمـل يقدرون أن يعملـوه في السر، فيكون علانيـة أبـداً. ولقد كان المسـلمون يجتهـدون في الدعاء، وما يسـمع لهم صوت، إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم، وذلك

(١) عن موقع (المسلم).

أن الله تعالى يقول: ﴿ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً ﴾، وذلك أن الله ذكـر عبداً صالحاً رضي فعله فقال: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ﴾)[١].

وإتمامـاً للفائدة أسـوق مزيداً من النـماذج المضيئة، التي تبين حرص سـلفنا الصالح على حفـظ أعمالهم وإخفائها عن الناس. فمن ذلك:

كان زيـن العابديـن علي بن الحسـين ينفق عـلى أهل مئة بيت في المدينة، يأتيهم في الليل بالطعام، ولا يعرفون من الآتي به، حتى مات ففقدوا ذلك، فعرفوا أن ذلك منه، ووجدوا في ظهره أثراً من نقل الطعام إلى بيوت الأرامل)[٢].

وكان ابـن المبـارك يضع اللثام على وجهـه عند القتال لئلا يُعرف، قال أحمد: (ما رفع الله ابن المبارك إلا بخبيئة كانت له)[٣].

وما جاء أن منصور السلمي صام أربعين سنة وقام ليلها، كان يبكـي فتقـول له أمـه: يا بني قتلـت قتيـلاً؟! فيقول: أنا

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٢٤) ط/ الشعب.

(٢) سير أعلام النبلاء: (٣/ ٣٩٣).

(٣) صفة الصفوة: (٤/ ١١٥).

أعلم بما صنعت بنفسي، فإذا كان الصبح كحل عينيه، ودهن رأسه، وبرق شفتيه، وخرج إلى الناس)(١).

ومن ذلك أن داود بن أبي هند: صام أربعين سنة لا يعلم به أهله، وكان خرازا يحمل غذاءه من عندهم، فيتصدق به في الطريق، ويرجع عشيًّا فيفطر معهم)(٢).

وقال سفيان: (أخبرتني سرية الربيع بن خثيم قالت: كان عمل الربيع كله سرًّا، إن كان ليجيء الرجل وقد نشر المصحف فيغطيه بثوبه)(٣).

وقول سلمة بن دينار: (اكتم حسناتك أشد مما تكتم سيئاتك)(٤).

ويقول الشافعي رحمه الله تعالى: (ينبغي للعالم أن يكون له خبيئة من العمل الصالح فيما بينه وبين الله ﷻ، ولا يعتمد على العلم فقط، فإنه قليل الجدوى في الآخرة)(٥).

---

(١) سير أعلام النبلاء: (٥/ ٤٠٦).
(٢) حلية الأولياء: (٣/ ٩٤).
(٣) حلية الأولياء: (٢/ ١٠٧).
(٤) المصدر السابق: (٣/ ٢٤٠).
(٥) العهود المحمدية: (١/ ٢٦٦).

وعن سفيان الثوري رحمه الله تعالى أنه كتب إلى أخ له: (واحذر حب المنزلة، فإن الزهادة فيها أشد من الزهادة في الدنيا)[١].

وعن إبراهيم بن أدهم قال: (لم يصدق الله من أحب الشهرة)[٢].

وقال ابن قتيبة: (حاصر مسلمة حصناً، فندب الناس إلى نقب منه، فما دخله أحد، فجاء رجل من عُرْض الجيش فدخله ففتحه الله عليهم، فنادى مسلمة: أين صاحب النقب؟ فما جاءه أحد، فنادى: إني قد أمرت الآذن بإدخاله ساعة يأتي، فعزمت عليه إلا جاء! فجاء رجل، فقال: استأذن لي على الأمير، فقال له: أنت صاحب النقب؟ قال: أنا أخبركم عنه. فأتى مسلمة فأخبره عنه، فأذن له، فقال له: إن صاحب النقب يأخذ عليكم ثلاثاً: ألا تسوِّدوا اسمه في صحيفة إلى الخليفة، ولا تأمروا له بشيء، ولا تسألوه ممن هو. قال: فذاك له. قال: أنا هو. فكان مسلمة لا يصلي بعدها صلاة إلا قال: اللهم اجعلني مع صاحب النقب!)[٣].

(١) حلية الأولياء: (٦/ ٣٨٧).

(٢) الحلية: (٨/ ١٩).

(٣) عيون الأخبار، لابن قتيبة: (١/ ٢٦٦).

ثالثاً: موافقة الباطن للظاهر وعدم مخالفة السريرة للعلانية:

وهـذه من صفات عبـاد الله المخلصين الذيـن لا يقولون ويفعلـون مـا يخالـف مـا في بواطنهـم وليسـوا مـن أهـل ذي الوجهـين الذيـن يلاقون هـؤلاء بوجـه وهؤلاء بوجـه آخر، لأن هـذا مـن صفـات المنافقـين الذيـن قـال الله ﷻ عنهـم: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١١٩]، وقـال عنهم أيضاً: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١١].

فمن علامات الإخلاص مطابقة السريرة للعلانية، بل إن سريرة المخلصين أحسـن من علانيتهـم، كما جاء ذلك عن ابن عيينة رحمه الله تعالى أنه قال: (إذا وافقت السريرة العلانية فذلك العـدل، وإذا كانت السريرة أفضل من العلانية فذلك الفضل، وإذا كانت العلانية أفضل من السريرة فذلك الجور)[١].

وأكثر ما يقع فيما يضاد هذه العلامة الحسنة من علامات الإخلاص بعض الوعاظ والمتنسكين الذين يظهرون التنسك والأمر بطاعة الله ﷻ أمام الناس، ثم يسـيئون فيما بينهم وبين

(١) تفسير الطبري: (١٣/ ١٦٣).

الله ﷻ، وقد حكى النبي ﷺ حال هؤلاء، فقال: «لأعلمن أقواماً من أمتي يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تهامة بيضاء، فيجعلها الله هباء منثوراً» قال ثوبان رضي الله عنه: صفهم لنا يا رسول الله! أن لا نكون منهم ونحن لا نعلم. قال: «أما إنهم إخوانكم، ومن جلدتكم، ويأخذون من الليل كما تأخذون، ولكنهم قوم إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها»[1].

والمخلصون من عباد الله ﷻ ليس هذا من شأنهم وليس من أخلاقهم، بل إنهم أسرع الناس إلى امتثال ما يأمرون الناس به من طاعة الله ﷻ، وأسرعهم إلى الانتهاء عمّا ينهون الناس عنه من معصية الله ﷻ أمام الناس وفي خلواتهم.

كتب أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل كتابا إلى عمر ابن الخطاب رضي الله عنهم جميعاً قالا فيه: (من أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل إلى عمر بن الخطاب، سلام عليك. أما بعد فإنا عهدناك وأمر نفسك لك. فأصبحت قد وليت أمر هذه الأمة أحمرها وأسودها، يجلس بين يديك الشريف والوضيع، والعدو والصديق، ولكل حصته من العدل، فانظر كيف

---

(١) رواه ابن ماجه: (٤٢٤٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع: (٥٠٢٨).

أنت عنـد ذلك يا عمر، فإنا نحذرك يومـاً تعنى فيه الوجوه، وتَجِـفُ فيه القلوب، وتنقطع فيـه الحجج لحجة ملك قهرهم بجبروته. فالخلق داخرون له، يرجون رحمته ويخافون عقابه. وإنـا كنا نحدث أن أمر هذه الأمة سـيرجع في آخر زمانها إلى أن يكونـوا أخوان العلانية أعـداء السريرة، وإنا نعوذ بالله أن ينزل كتابنا إليك سوى المنزل الذي نزل من قلوبنا، فإنما كتبنا به نصيحة لك والسلام عليكم.

فكتب إليهما عمر بن الخطاب رضي الله عنه: من عمر بن الخطاب إلى أبي عبيـدة ومعـاذ، سـلام عليكما. أما بعد أتـاني كتابكما تذكـران أنكما عهدتماني وأمر نفـسي لي فأصبحت قد وليت أمـر هذه الأمة أحمرها وأسـودها، يجلس بين يدي الشريف والوضيـع، والعـدو والصديـق، ولكل حصته مـن العدل. كتبتـما فانظر كيف أنت عند ذلك يا عمر! وأنه لا حول ولا قـوة لعمر عند ذلك إلا بالله عز وجل. وكتبتما تحذراني ما حذرت منـه الأمم قبلنا، وقديماً كان اختـلاف الليل والنهار بآجال النـاس يقربـان كل بعيد، ويبليان كل جديـد، ويأتيان بكل موعـود، حتى يصـير النـاس إلى منازلهم من الجنـة والنار،

كتبتما تحذراني أن أمر هذه الأمة سيرجع في آخر زمانها إلى أن يكونوا أخوان العلانية أعداء السريرة، ولستم بأولئك وليس هذا بزمان ذاك، وذلك زمان تظهر فيه الرغبة والرهبة، تكون رغبة الناس بعضهم إلى بعض لصلاح دنياهم. كتبتما تعوذاني بالله أن أنزل كتابكما سوى المنزل الذي نزل من قلوبكما، وأنكما كتبتما به نصيحة لي، وقد صدقتما، فلا تدعا الكتاب إليَّ فإنه لا غنى بي عنكما، والسلام عليكما)[١].

وقال حميد الطويل رحمه الله تعالى: (لئن كنت إذا عصيت الله خالياً ظننت أنه يراك لقد اجترأت على أمر عظيم، ولئن كنت تظن أنه لا يراك فلقد كفرت)[٢].

وقال ابن الإعرابي: (أخسر الخاسرين من أبدى للناس صالح أعماله، وبارز بالقبيح من هو أقرب إليه من حبل الوريد)[٣].

ومن هؤلاء المخلصين الذين شهد لهم بمطابقة السريرة للعلانية الحسن البصري رحمه الله تعالى، فعن خالد بن

(١) الحلية، لأبي نعيم: (١/ ٢٣٨).
(٢) إحياء علوم الدين: (٤/ ٣٩٨).
(٣) شعب الإيمان، للبيهقي: (٦٩٨٧).

صفوان قال لقيت مسلمة بن عبدالملك فقال يا خالد أخبرني عن حسن أهل البصرة. قلت: أصلحك الله أخبرك عنه بعلم أنا جاره إلى جنبه وجليسه في مجلسه، وأعلم من قبلي به: أشبه الناس سريرة بعلانية، وأشبهه قولاً بفعل، إن قعد على أمر قام به، وإن قام على أمر قعد عليه، وإن أمر بأمر كان أعمل الناس به، وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له، رأيته مستغنياً عن الناس، ورأيت الناس محتاجين إليه)[(١)].

وهناك بعض الصور التي يترفع عنها صاحب السريرة الصالحة، لأنها من علامات مخالفة السريرة للعلانية، من هذه الصور:

إظهار الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، مع أن الأمر في الباطن خلاف ذلك، حيث يكون حب الدنيا قد تمكن من القلب وسافر في أوديتها وتفرق في شعابها.

إظهار الغيرة على الدين والحدب عليه، وأنه الهم الشاغل للنفس، مع أن هذا الادعاء لا يتعدى اللسان أو الكتابة، أما القلب فيكاد يفرغ من هذا الهم المدعى، لأنه قد امتلأ باهتمامات أخرى تسبق الاهتمام بالإسلام في سلم

(١) سير أعلام النبلاء: (٤/ ٥٧٦).

الأولويـة. وهـذه الصور عادة مـا تظهر عند بعـض الوعاظ أو الخطبـاء أو الكتـاب، الذيـن يظهـرون الحرقـة والألم على الإسـلام والمسـلمين، والله أعلم بما في القلوب. فلننتبه لخطر هـذه المناقضة، ولنحذر هذه الفتنة، فهي من صفات المنافقين التـي ذكرهـا الله ﷻ عنهـم بقولـه: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٧].

مخالطة الكفار أو الظلمة والفسقة ومدحهم أو موافقتهم فيما يقولـون ويعملون من مخالفات، ثم ذكرهم بالسـوء بعد مفارقتهـم، وهـذا هو الذي كان أصحـاب محمد ﷺ يعدونه من النفاق ويخافون منه.

إظهار المحبة والشـفقة للناس وسلامة القلب نحوهم، مـع تلبُّـس القلـب بأمـراض كثـيرة تناقـض هـذا الادعـاء: كأمراض الحسد والحقد والشحناء وغيرها.

وقد أشـار شـيخ الإسـلام ابن تيميـة رحمـه الله تعالى إلى صـورة متكررة مـن صور مخالفـة الظاهر للباطـن، ألا وهي إظهار الغيبة للناس في قالب النصح والشفقة والديانة. يقول رحمـه الله تعـالى: (ومنهـم من يخـرج الغيبة في قوالب شـتى.

تـارة في قالب ديانـة وصلاح، فيقول: ليـس لي عادة أن أذكر أحـداً إلا بخير، ولا أحب الغيبـة ولا الكذب، وإنما أخبركم بأحوالـه، ويقول: والله إنه مسـكين أو رجل جيد، ولكن فيه كيـت وكيت، وربما يقول: دعونـا منه، الله يغفر لنا وله. وإنما قصده اسـتنقاصه وهضماً لجنابه، ويخرجون الغيبة في قوالب صلاح وديانة، يخادعون الله بذلك، كما يخادعون مخلوقاً، وقد رأينا منهم ألواناً كثيرة من هذا وأشـباهه... ومنهم من يخرج الغيبـة في قالب التعجـب، فيقول: تعجبت من فلان كيف لا يفعـل كيت وكيت؟ ومن فلان كيـف وقع منه كيت وكيت، وكيف فعل كيت وكيت؟! فيخرج اسـمه في معرض تعجبه. ومنهـم من يخرج الاغتمام فيقول: مسـكين فـلان. غمني ما جري له وما تم له، فيظن من يسـمعه أنه يغتم له ويتأسـف، وقلبـه منطو على التشـفي بـه. ولو قدر لزاد على مـا به. وربما يذكره عند أعدائه ليتشـفوا به، وهذا وغيره من أعظم أمراض القلـوب والمخادعـات لله ولخلقه. ومنهم مـن يظهر الغيبة في قالـب غضب وإنكار منكـر، فيظهر في هذا الباب أشـياء من زخارف القول وقصده غير ما أظهر والله المستعان)[1].

(١) مجموع الفتاوى: (٢٨/ ٢٣٧-٢٣٨).

رابعاً: خوفهم من أن ترد أعمالهم الصالحة:

وذلك كما وصفهم الله ﷻ بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦٠].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى عند الآية الأخيرة: (أي يعطون العطاء وهم خائفون وجلون أن لا يتقبل منهم، لخوفهم أن يكونوا قد قصروا في القيام بشرط الإعطاء. وهذا من باب الإشفاق والاحتياط، كما روى الإمام أحمد عن عائشة ﵂ أنها قالت: يا رسول (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة) هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله ﷻ؟ قال: (لا يا بنت أبي بكر يا بنت الصديق، ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله ﷻ)[1]، وهكذا رواه الترمذي وابن أبي حاتم بنحوه. وقال: (لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصلون ويصومون ويتصدقون، وهم يخافون ألا يقبل منهم

(١) مسند أحمد: (٦/ ١٥٩).

(أولئك يسارعون في الخيرات)[١]، وقال الحسن: (يؤتون الإخلاص، ويخافون ألا يقبل منهم)[٢].

وأخبار السلف في خوفهم من أن ترد أعمالهم الصالحة بسبب بعض المكدرات كثيرة، فمن ذلك:

عن تميم المقري قال: سمعت أبا الدرداء رضي الله عنه يقول: (لأن أستيقن أن الله قد تقبل مني صلاة واحدة أحب إليَّ من الدنيا وما فيها، إن الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾)[٣].

قول الربيع بن خثيم: (كل ما لا يُبتغى فيه وجه الله عز وجل يضمحل)[٤].

وعن محمد بن مالك بن ضيغم قال: حدثني مولانا أبو أيوب قال: قال لي أبو مالك يوماً: يا أبا أيوب احذر نفسك على نفسك، فإني رأيت هموم المؤمنين في الدنيا لا تنقضي، وايْم الله لئن لم تأت الآخرةُ المؤمنَ بالسرور لقد اجتمع عليه الأمران:

(١) تحفة الأحوذي: (٩/ ١٩)، وانظر المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير: (ص ٩١٦ ٩١٧)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي: (٣/ ٨٠).
(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: (١٢/ ١٣٢).
(٣) تفسير ابن كثير: (٣/ ٧٩)، ط الشعب.
(٤) صفة الصفوة: (٣/ ٦١).

همّ الدنيا وشقاء الآخرة. قال قلت: بأبي أنت وكيف لا تأتيه الآخرة بالسرور وهو ينصَب لله في دار الدنيا ويدأب؟ قال: يا أبا أيوب فكيف بالقبول وكيف بالسلامة؟ ثم قال: كم من رجل يَرى أنه قد أصلح شأنه، قد أصلح قُربانه، قد أصلح همّته، قد أصلح عمله، يجمع ذلك يوم القيامة ثم يضرب به وجهه)[١].

وقال العز بن عبد السلام: (قد يرى الإنسان اثنين فيظن أن أحدهما أفضل من الآخر، لما يرى من طاعته الظاهرة، والآخر أفضل منه بدرجات كثيرة، لما اشتمل عليه من المعارف والأحوال، والقليل من أعمال الأعرف خير من الكثير من أعمال العارف، وأين الثناء من المستحضرين لأوصاف الجلال وتعرُّف الكمال، من ثناء المسبحين بألسنتهم الغافلين بقلوبهم؟ ليس التكحل في العينين كالكحل)[٢].

خامساً: الفرار من العجب وتزكية النفس:

وهذا من دأب المخلصين الذين يعرفون ربهم بأسمائه الحسنى وصفاته العلا، ويعلمون ويوقنون بأنه ﷻ المتفضل

(١) صفة الصفوة: (٣/ ٣٦٠).

(٢) قواعد الأحكام: (٣٥٩).

عليهم بالإيجاد والإعداد والإمداد، وهو الذي أمدهم بالسمع والبصر والفؤاد وقد خرجوا من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً ولا يقدرون على شيء، فمن أين يأتي العجب إلى هذه النفوس المعترفة بفضل ربها عليها في كل شيء والمعترفة بتقصيرها وآفاتها وعجزها، وأن الله ﷻ لو وكلها إلى أنفسها لضاعت وخسرت. ولذا نرى مثل هؤلاء المخلصين شديدي الاستعانة بالله ﷻ والتوكل عليه وحده ومتبرئين من الحول والقوة، فارين من العجب وأسبابه. وأخبارهم في ذلك كثيرة:

قال مطرف بن عبدالله: (لأن أبيت نائماً وأصبح نادماً أحب إليَّ من أن أبيت قائماً وأصبح معجباً)[١].

وقال مسروق: (كفى بالمرء علماً أن يخشى الله، وكفى بالمرء جهلاً أن يعجب بعمله)[٢].

وجاء عن ابن حزم قال: (كانت فيَّ عيوب، ومنها عجب شديد، فناظر عقلي نفسي بما يعرفه من عيوبها حتى ذهب

(١) الحلية: (٢/ ٢٠٠).
(٢) الدر المنثور، للسيوطي: (٥/ ٤٧٠).

كلـه، ولم يبق والحمد لله أثر، بل كلفـت نفسي احتقار قدرها جملة واستعمال التواضع)[١].

وجـاء عنـه أيضـاً قوله: (مـن امتحن بالعجـب فليفكر في عيوبـه، فـإن أعجب بفضائلـه فليفتش فيـه عن الأخلاق الدنيـة، فإن خفت عليه عيوبه جملة حتى يظن أنه لا عيب فيه فليعلـم أنه مصيبة للأبد، وأنه أتم النـاس نقصاً، لأن العاقل من ميز عيوب نفسـه فغالبها، وسعى في قمعها، فإن أعجبت بآرائك فتفكر في سـقطاتك واحفظهـا، وإن أعجبت بخيرك ففكـر في معاصيك وتقصيرك، وإن أعجبـت بعلمك فاعلم أنه لا خصلة لك فيه وأنه موهبة من الله)[٢].

وعن أبي وهب المروزي: سـألت ابن المبارك: ما الكبر؟ قال: أن تزدري الناس. فسألت عن العجب قال: أن ترى أن عندك شيئاً ليس عند غيرك. لا أعلم في المصلين شيئاً شرًّا من العجب)[٣].

---

(١) الأخلاق والسير: (٣٣، ٣٤).

(٢) رسائل ابن حزم: (١/ ٢٨٧).

(٣) سير أعلام النبلاء: (٨/ ٤٠٧).

وللإمـام ابن القيم رحمه الله تعـالى كلام نفيس في علاج العجـب، وذلك في حديثه عن شـهود العبـد ذنوبه، وحكمة الله ﷻ في تخليتـه بـين العبـد والذنـب، إذ يقـول: (ومنهـا أن الله ﷻ إذا أراد بعبده خيراً أنساه رؤية طاعته ورفعها من قلبه ولسـانه، فإذا ابتلي بالذنب جعله نصب عينيه ونسي طاعاته، وجعـل همّـه كله بذنبه، فلا يزال ذنبه أمامـه إن قام أو قعد أو غَـدَا أو راح، فيكـون هذا عين الرحمة في حقّـه. كما قال بعض السّـلف: إن العبـد ليعمل الذنـب فيدخل به الجنـة، ويعمل الحسـنة فيدخل بهـا النار. قالـوا: وكيف ذلك؟ قـال: يعمل الخطيئـة فلا تـزال نصب عينيه كلما ذكرهـا بكى وندم وتاب واسـتغفر وتـضرّع وأناب إلى الله وذلّ لـه وانكسر وعمل لها أعمالاً فتكون سـبب الرحمة في حقه. ويعمل الحسنة فلا تزال نصـب عينيه يمنّ بهـا ويراها ويعتدّ بها عـلى ربّه وعلى الخلق ويتكبّر بهـا ويتعجّب من الناس كيف لا يعظمونه ويكرمونه ويجلونـه عليهـا، فلا تـزال هذه الأمـور به حتى تقـوى عليه آثارها فتدخله النار، فعلامة السعادة أن تكون حسنات العبد خلف ظهره وسيئاته نصب عينيه، وعلامة الشقاوة أن يجعل حسناته نصب عينيه وسيئاته خلف ظهره، والله المُستعان.

ومنها أن شهود العبد ذنوبه وخطاياه مُوجب له أن لا يرى لنفسه على أحد فضلاً ولا له على أحد حقًّا فإنه يشهد عيوب نفسه وذنوبه، فلا يظنّ أنه خير من مسلم يؤمن بالله ورسوله ويحرّم ما حرّم الله ورسوله، وإذا شهد ذلك من نفسه لم يرَ لها على الناس حقوقاً من الإكرام يتقاضاهم إيّاها ويذمهم على ترك القيام بها، فإنها عنده أخسّ قدراً وأقل قيمة من أن يكون له بها على عباد الله حقوق يجب عليهم مراعاتها، أو له عليهم فضل يستحق أن يكرم ويعظم ويقدّم لأجلها، فيرى أن من سلم عليه أو لقيه بوجه منبسط فقد أحسن إليه وبذل له ما لا يستحقه، فاستراح هذا في نفسه وأراح الناس من شكايته وغضبه على الوجود وأهله، فما أطيب عيشه، وما أنعم باله، وما أقرّ عينه، وأين هذا ممّن لا يزال عاتباً على الخلق، شاكياً ترك قيامهم بحقه ساخطاً عليهم وهم عليه أسخط)[1].

سادساً: مجاهدتهم لهوى النفس وجعله تبعاً للحق:

وهذه العلامة من علامات الإخلاص تعد من أشق ما على نفوس المخلصين، إذ إن الهوى هو ميل النفس والطبع

---

(١) مفتاح دار السعادة: (١/ ٣١٠).

إلى ما يهواه. ولا يتخلص منه إلا الصديقون من المؤمنين، ويحتاج التخلص منه إلى مجاهدة عظيمة ومراقبة دقيقة ويقظة شديدة للقلب وتقلباته، ومن مظاهره الخفية أنك قد تدخل في أمر تحسب أنك مخلص فيه وليس لك فيه هوى، فما تلبث أن يدخل الهوى وحظوظ النفس فيتغير كل شيء.

فعلى مريد الإخلاص أن يقوي إرادته ويخاف مقام ربه وينهى النفس عن الهوى حتى تكون الجنة هي المأوى، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: (أفضل الجهاد جهاد الهوى)[١].

وقال عمر بن عبدالعزيز رحمه الله تعالى: (لا تكن ممن يتبع الحق إذا وافق هواه، ويخالفه إذا خالف هواه، فإذاً أنت لا تثاب على ما وافقته من الحق وتعاقب على ما تركته منه، لأنك إنما اتبعت هواك في الموضعين)[٢].

(١) أدب الدنيا والدين، للماوردي: (٤١).
(٢) شرح العقيدة الطحاوية: (١/ ٥٩٠).

وقد ذكر الشيخ عبدالرحمن المعلمي رحمه الله تعالى في كتابه النفيس (التنكيل) مجموعة من الأسباب التي توقع في الهوى والتعصب ورد الحق وأهمها ضعف الإخلاص، ثم أعقبها بذكر صور من الهوى وصور من العلاج لهذا الهوى، أسوقها للقارئ الكريم مختصرة لفائدتها.

قال رحمه الله تعالى: (ومخالفة الهوى للحق في الاعتراف بالحق من وجوه:

الأول: أن يرى الإنسان أن اعترافه بالحق يستلزم اعترافه بأنه كان على باطل، فالإنسان ينشأ على دين أو اعتقاد أو مذهب أو رأي يتلقاه من مربيه ومعلمه على أنه حق، فيكون عليه مدة ثم إذا تبين له أنه باطل شق عليه أن يعترف بذلك، وهكذا إذا كان آباؤه أو أجداده أو متبوعه على شيء، ثم تبين له بطلانه، وذلك أنه يرى أن نقصهم مستلزم لنقصه، فاعترافه بضلالهم أو خطئه اعتراف بنقصه.

الوجه الثاني: أن يكون قد صار له في الباطل جاه وشهرة ومعيشة، فيشق عليه أن يعترف بأنه باطل فتذهب تلك الفوائد.

الوجه الثالث: الكبر، يكون الإنسان على جهالة أو باطل فيجيء آخر فيبين له الحجة، فيرى أنه إن اعترف كان معنى ذلك اعترافه بأنه ناقص، وأن ذلك الرجل هو الذي هداه، ولهذا ترى من المنتسبين إلى العلم من لا يشق عليه الاعتراف بالخطأ إذا كان الحق يتبين له ببحثه ونظره، ويشق عليه ذلك إذا كان غيره هو الذي بيّن له.

الوجه الرابع: الحسد، وذلك إذا كان غيره هو الذي بين الحق فيرى أن اعترافه بذلك الحق يكون اعترافاً لذلك المبين بالفضل والعلم والإصابة، فيعظم ذلك في عيون الناس، ولعله يتبعه كثير منهم، وإنك لتجد من المنتسبين إلى العلم من يحرص على تخطئة غيره من العلماء ولو بالباطل حسداً منه لهم، ومحاولة لحط منزلتهم عند الناس...)[(١)].

ثم أخذ رحمه الله تعالى بعد ذلك يذكر بعض الصور التي تكون عند بعض أهل العلم ويكون دافعها الهوى والتعصب، فيقول: (.. فنجد ذا الهوى كلما عرض عليه دليل لمخالفيه أو ما يوهن دليلاً لأصحابه شق عليه ذلك واضطرب

(١) التنكيل: (٢/ ١٨٠ - ١٨٢) باختصار.

واغتـاظ وسـارع إلى الشـغب، فيقـول في دليـل مخالفيه: هذه شـبهة باطلة مخالفة للقطعيات، وهـذا المذهب مذهب باطل لم يذهـب إليـه إلا أهـل الزيـع والضـلال...، ويؤكـد ذلك بالثنـاء على مذهبه وأشـياخه، ويعد المشـاهير منهم ويطريهم بالألفـاظ الفخمـة، والألفـاظ الضخمـة، ويذكـر مـا قيل في مناقبهـم ومثالب مخالفيهم، وإن كان يعلم أنه لا يصح أو أنه باطـل، ومـن أوضح الأدلة على غلبة الهـوى على أكثر الناس -أنـك تراهـم- على أديان مختلفة ومقالات متباينة، ومذاهب متفرقـة، وآراء متدافعـة ثم تراهـم كما قـال الله تبارك وتعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣].

فلا تجد من ينشـأ على شيء مـن ذلك ويثبت عليه يرجع عنـه إلا القليل، وهـؤلاء القليل يكثر أن يكون أول ما بعثهم على الخروج عما كانوا عليه أغراض دنيوية..) [١].

واستمر في ذكر بعض صور اتباع الهوى، فقال:

(... افـرض أنك قرأت آية فلاح لـك منها موافقة قول لإمامـك، وقرأت أخرى فلاح لـك منها مخالفة قول آخر له،

(١) التنكيل: (٢/ ١٨٠-١٨٢).

أيكون نظرك إليهما سـواء؟ لا تبـالى أن يتبين منهما بعد التدبر صحة ما لاح لك أو عدم صحته[١].

افـرض أنـك وقفت عـلى حديثـين لا تعـرف صحتهما ولا ضعفهـما، أحدهمـا يوافق قولاً لإمامـك والآخر يخالفه، أيكون نظرك فيهما سـواء، لا تبالي أن يصح سـند كل منهما أو يضعف؟...

افـرض أن رجـلاً تحبـه وآخـر تبغضـه تنازعـا في قضيـة فاسـتفيت فيهـا ولا تسـتحضر حكمهـا وتريـد أن تنظر. ألا يكون هواك في موافقة الذي تحبه...؟

افرض أنك تعلم من رجل منكراً وتعذر نفسك في عدم الإنـكار عليه، ثـم بلغك أن عالمـاً أنكر عليه وشـدد النكير، أيكون استحسـانك لذلك سـواء فيما إذا كان المنكر صديقك أم عدوك، والمنكر عليه صديقك أم عدوك؟

(١) وقريباً من هذه الصورة ما ذكره البيهقي عمن يقتطع من النصوص ما يوافق هـواه إذ يقـول: (وهذا دأبه في نقـل الأخبار ينقل ما يمكنـه التعلق به ويدع الباقي ليوهـم من نظر في كتابه أنه حجة له، ولا يفكر في نفسه أن المطلع على السرائـر عالم بفعلـه وأنه ربما ينظـر في كتابه من هو عالم فيطلع على تلبيسـه، والله يعصمنا من أمثاله بفضله) القراءة خلف الإمام: للبيهقي (ص ٣١٣).

فتش نفسـك تجدك مبتلى بمعصية أو نقص في الدين، وتجد من تبغضه مبتلى بمعصية أو نقص آخر ليس في الشرع بأشـد مما أنت مبتلى به. فهل تجد استشناعك ما هو عليه مساوياً لاستشناعك ما أنت عليه، وتجد مقتك نفسك مساوياً لمقتك إياه؟

وبالجملـة فمسـالك الهـوى أكثـر مـن أن تحـصى، وقد جربـت نفسي أننـي ربما أنظر في القضية زاعـماً أن لا هوى لي فيلـوح لي فيهـا معنى، فأقـرره تقريراً يعجبني ثـم يلوح لي ما يخدش في ذاك المعنـى فأجدني أتبرم بذلك الخدش وتنازعني نفسي إلى تكلف الجواب عنه، وغض النظر عن مناقشـة ذاك الجـواب، وإنما هـذا لأني لما قـررت ذلك المعنـى أولاً تقريراً أعجبنـي صرت أهوى صحته هذا مع أنه لم يعلم بذلك أحد مـن الناس، فكيـف إذا كنت قـد أذعته في النـاس ثم لاح لي الخـدش؟ فكيـف لـو لم يلـح لي الخـدش، ولكن رجـلاً آخر اعترض عليَّ به؟ فكيف لو كان المعترض ممن أكرهه؟

والواجب على العالم وطالب العلم أن يفتش عن هوى نفسه حتى يعرفه ثم يحترز منه ويمعن النظر في الحق من حيث هو حق، فإن بان له أنه مخالف لهواه آثر الحق على هواه...)[١] أ.هـ.

(١) التنكيل: (٢/ ١٨٦-١٩٨) باختصار وتصرف يسير.

وبعد هذا الكلام الجيد عن أسباب الوقوع في الهوى ورد الحق والتعصب للباطل، وبعد ذكر الأمثلة لذلك، يحسن ذكر بعض الوسائل المعينة على تجنب الهوى وقبول الحق.

إن الوقوع في الباطل والضلال بسبب الجهل يكون علاجه بالعلم والبصيرة في الدين. أما البقاء على الباطل بعد تبين بطلانه ورد الحق بعد ما تبين أنه الحق فإن علاج هذا المرض الخطير لا ينفع فيه العلم وإزالة الشبهة، لأن سببه الهوى وضعف الإخلاص والتعصب وليس الجهل والشبهة، ومثل هذا لا ينفع فيه إلا أن يذكر بتقوى الله ﷻ والخوف من عقابه ﷻ، كما يذكر بشرف الحق واتباعه والثواب العظيم الذي يكتبه الله ﷻ للمتبعين للحق والمؤثرينه على أهوائهم وشهواتهم، وفي ذلك يقول المعلمي رحمه الله تعالى: (هذه أمور ينبغي للإنسان أن يقدم التفكر فيها ويجعلها نصب عينيه.

يفكر في شرف الحق وضعة الباطل، وذلك بأن يفكر في عظمة الله ﷻ وأنه رب العالمين، وأنه ﷻ يحب الحق ويكره الباطل، وأن من اتبع الحق استحق رضوان رب العالمين، فكان ﷻ وليه في الدنيا والآخرة، بأن يختار له كل ما يعلمه

خيراً له وأفضل وأنفع وأكمل وأشرف وأرفع حتى يتوفاه راضياً مرضياً، فيرفعه إليه ويقربه لديه، ويجعله في جواره مكرماً منعماً في النعيم المقيم، والشرف الخالد، الذي لا يبلغ الأوهام عظمته، وأن من أخلد إلى الباطل استحق سخط رب العالمين وغضبه وعقابه، فإن آتاه شيئاً من نعيم الدنيا فإنما ذلك لهوانه عليه ليزيده بُعداً عنه، وليضاعف له عذاب الآخرة الأليم الخالد الذي لا تبلغه الأوهام.

يتدبر ما يرجى لمؤثر الحق من رضوان رب العالمين، وحسن عنايته في الدنيا والفوز العظيم الدائم في الآخرة، وما يستحقه متبع الهوى من سخطه ﷻ، والمقت في الدنيا والعذاب الأليم الخالد في الآخرة، وهل يرضى عاقل لنفسه أن يشتري لذة اتباع هواه بفوات حسن عناية رب العالمين وحرمان رضوانه والقرب منه والزلفى عنده والنعيم العظيم في جواره، وباستحقاق مقته وسخطه وغضبه وعذابه الأليم الخالد؟ لا ينبغي أن يقع هذا حتى من أقل الناس عقلاً، سواء أكان مؤمناً موقناً بهذه النتيجة، أم ظاناً لها، أم شاكاً فيها، أم ظاناً لعدمها...

يستحضر أن الذي يهمه ويُسأل عنه هو حاله في نفسه، فلا يضره عند الله تعالى ولا عند أهل العلم والدين والعقل أن يكون معلمه أو مربيه أو أسلافه أو أشياخه على نقص، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام لم يَسلموا من هذا، وأفضل هذه الأمة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورضي عنهم وكان آباؤهم وأسلافهم مشركين.

هذا مع احتمال أن يكون أسلافك معذورين إذا لم ينبهوا ولم تقم عليهم الحجة. وعلى فرض أن أسلافك كانوا على خطأ يؤاخذون به فاتباعك لهم وتعصبك لا ينفعهم شيئاً بل يضرهم ضرراً شديداً، فإنه يلحقهم مثل إثمك ومثل إثم من يتبعك من أولادك وأتباعك إلى يوم القيامة، كما يلحقك مع إثمك مثل إثم من يتبعك إلى يوم القيامة، أفلا ترى أن رجوعك إلى الحق هو خير لأسلافك على كل حال؟

يأخذ نفسه بخلاف هواها فيما يتبين له، فلا يسامحها في ترك واجب أو ما يقرب منه، ولا في ارتكاب معصية أو ما يقرب منها، ولا في هجوم على مشتبه، ويروضها على التثبت

والخضوع للحق، ويشدد عليها في ذلك حتى يصير الخضوع للحق ومخالفة الهوى عادة له.

يأخذ نفسه بالاحتياط فيما يخالف ما نشأ عليه، فإذا كان فيما نشأ عليه أشياء يرى أنه لا بأس بها، أو أنها مستحبة، وعلم أن من أهل العلم من يقول: إنها شرك أو بدعة أو حرام، فليأخذ نفسه بتركها حتى يتبين له بالحجة الواضحة صحة ما نشأ عليه، وهكذا ينبغي له أن ينصح غيره ممن هو في مثل حاله، فإن وجدت نفسك تأبى ذلك، فاعلم أن الهوى مستحوذ عليها فجاهدها)[1] أ.هـ.

• **العلامة الثانية: لصلاح السريرة:**

ترك ما لا يعني والانشغال بالنفس وإصلاحها عن الانشغال بعيوب الناس. وهذا من علامات صلاح الباطن، حيث إن صاحب السريرة الصالحة لا تراه إلا منشغلاً بنفسه وإصلاحها معرضاً عن عيوب الناس، فعنده من الإصلاحات لنفسه ما يشغله عن غيره. وتراه في إصلاح حاله مركزاً على

(١) التنكيل: (٢/ ١٩٠ - ٢٠٠) باختصار.

قلبه وسريرته ساعياً في إصلاح ما فسد منها باذلاً جهده في التخلص من الآفات التي تفسدها.

وهذا من علامات توفيق الله ﷻ لعبده المؤمن، ومن علامات الخذلان أن تجد العبد منشغلاً بعيوب الناس وآفاتهم ناسياً نفسه وآفاتها.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى وهو يفصل في حكمة الله تعالى في قضائه وتخليته بين العبد والذنب: (ومنها: أنه يوجب له الإمساك عن عيوب الناس والفكر فيها، فإنه في شغل بعيب نفسه، فطوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وويل لمن نسي عيبه وتفرغ لعيوب الناس. هذا من علامة الشقاوة كما أن الأول من أمارات السعادة)[١].

وقال في موطن آخر: (فمن عرف نفسه اشتغل بإصلاحها عن عيوب الناس، من عرف ربه اشتغل به عن هوى نفسه، أنفع العمل أن تغيب فيه عن الناس بالإخلاص وعن نفسك بشهود المنة فلا ترى فيه نفسك ولا ترى الخلق)[٢].

---

(١) مفتاح دار السعادة: (١/ ٣١٠).

(٢) الفوائد: (ص ٦٣).

وهـذا لا يعنـي ترك الأمـر بالمعروف والنهـي عن المنكر وإهمال دعوة الناس، وإنما المقصود أن لا تنسـيه دعوة الناس إصلاح نفسه والاهتمام بها ونسيان آفاتها الظاهرة والباطنة.

• العلامة الثالثة: أصحاب السريرة الصالحة إذا رُؤوا ذُكِرَ الله ﷻ:

جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «**ألا أخبركم بخياركم**» قالوا بـلى. قال: «**الذين إذا رؤوا ذكر الله. أفلا أخبركم بشراركم**». قالـوا: بلى. قـال: «**المشـاؤون بالنميمة المفسـدون بين الأحبة الباغون للبرآء العيب**»(١).

وجـاء في الزهد لابن المبارك عن العلاء بن المسـيب عن أبي الضحى قال: سمعته يقول: (إن عباد الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين إذا رؤوا ذكر الله)(٢).

وهـؤلاء الذيـن تذكـر رؤيتهم ذكر الله ﷻ لاشـك أنهم المؤمنـون باطنـاً وظاهـراً الذيـن صلحت سرائرهـم، فألقى الله ﷻ النور والسـمت الحسـن عـلى ظواهرهـم ووجوههم، فأحبهـم النـاس، وذكـروا الله ﷻ برؤيتهـم، وهـذا مصداق

(١) انظر صحيح الأدب المفرد، حيث حسنه الألباني: (٢٤٦).
(٢) الزهد لابن المبارك: (٣/ ١٤٨).

قـول الله ﷻ في وصفـه لأصحـاب نبينـا محمـد ﷺ، وذلك في قوله ﷻ: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩].

يقـول الإمـام ابن كثـير رحمـه الله تعالى عند هـذه الآية: (قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: سيماهم في وجوههم يعني السـمت الحسن. وقال مجاهد وغير واحد: يعني الخشوع والتواضع... وقال السـدي: الصلاة تحسـن وجوههم. وقال بعض السلف: من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار... وقال بعضهم: إن للحسـنة نوراً في القلب، وضياءً في الوجه، وسـعةً في الرزق، ومحبةً في قلوب الناس. وقال أمير المؤمنين عثـمان رضي الله عنه: ما أسر أحد سريـرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسـانه. والغـرض أن الشيء الكامن في النفس يظهـر عـلى صفحـات الوجـه، فالمؤمـن إذا كانـت سريرتـه صحيحـة مـع الله أصلـح الله ظاهـره للناس، كـما روي عن عمـر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قـال: من أصلح سريرته أصلح الله علانيته... فالصحابة خلصت نياتهم وحسـنت أعمالهم، فكل من نظر إليهم أعجبوه في سمتهم وهديهم)[١].

(١) تفسير ابن كثير: (٧/ ٣٤٢-٣٤٣) باختصار، ط الشعب.

وقـال البقاعي رحمه الله تعالى في نظم الدرر: (سـيماهم: أي علامتهـم التي لا تفارقهم في وجوههـم) ثم بين العلامة بقوله (من أثر السـجود) فهي نور يوم القيامة. رواه الطبراني عـن أبي بن كعب رضي الله عنه عـن النبي صلى الله عليه وسـلم. هذا مـع مـا لهم من مثل ذلـك في الدنيا مـن أثر الخشـوع والهيبة، بحيـث إنه إذا رئـي أحدهم أورثت لرائيه ذكـر الله، وإذا قرأ أورثت قراءته حزناً وخشـوعاً وإخباتـاً وخضوعاً، وإن كان رث الحال رديء الهيئة)[١].

وقال سـيد قطـب رحمـه الله تعالى أيضـاً عند هـذه الآية: (... واللقطة الرابعة تثبت أثر العبادة الظاهرة والتطلع المضمر في ملامحهم، ونضحها على سـاتهم ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾، سـيماهم في وجوههم من الوضـاءة والإشراق والصفـاء والشـفافية، ومـن ذبـول العبـادة الحـي الـوضيء اللطيف... فهو أثر هذا الخشوع. أثره في ملامح الوجه، حيث تتـوارى الخيلاء والكبريـاء والفراهة، ويحل مكانهـا التواضع النبيـل، والشـفافية الصافيـة، والوضـاءة الهادئـة، والذبـول الخفيف الذي يزيد وجه المؤمن وضاءة وصباحة ونبلا)[٢].

---

(١) نظم الدرر: (١٨/ ٣٤٠).

(٢) في ظلال القرآن: (٦/ ٣٣٣٢) باختصار.

وجاء في وصف حماد بن زيد رحمه الله تعالى عن أبي عاصم قوله: (مات حماد بن زيد يوم مات، ولا أعلم له في الإسلام نظيراً في هيبته ودله، أظنه قال: وسمته)[(١)].

وعن الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى قال: (إنما يهابك الخلق على قدر هيبتك لله)[(٢)].

وقال إبراهيم بن الأشعث: (ما رأيت أحداً كان الله في صدره أعظم من الفضيل، كان إذا ذكر الله أو ذكر عنده أو سمع القرآن ظهر به الخوف والحزن وفاضت عيناه، وبكى حتى يرحمه من بحضرته)[(٣)].

• **العلامة الرابعة: تعظيم الله ﷻ وتعظيم حرماته والخوف منه:**

يقول الله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

فمن علامات تقوى القلب وصلاح السريرة تعظيم شعائر الله وحرماته، وذلك بتعظيم أوامره بفعلها ونواهيه

(١) حلية الأولياء: (٦/ ٢٥٨).
(٢) الحلية: (٨/ ١١٠).
(٣) حلية الأولياء: (٨/ ٨٤).

باجتنابهـا، والمبادرة السريعة بالتوبة مـن الذنوب، والحياء من الله ﷻ، وهـذا مـن علامة صحة المحبة لله تعـالى، وضد ذلك الاسـتهانة بحرمـات الله ﷻ، والجـرأة عليها، وعـدم الخوف والوجـل عند تعديها، فإن هذا كله يدل على فسـاد في الباطن ومرض في القلب.

يقـول ابـن القيم رحمـه الله تعـالى: (ولـو تمكن وقـار الله وعظمته في قلب العبد لما تجرأ على معاصيه، وربما اغتر المغتر، وقـال: إنما يحملنـي على المعاصي حسـن الرجـا، وطمعي في عفـوه، لا ضعف عظمته في قلبـي، وهذا من مغالطة النفس، فـإن عظمـة الله تعـالى وجلاله في قلـب العبد تقتـضي تعظيم حرماته، وتعظيم حرماته تحول بينه وبين الذنوب. المتجرئون على معاصيه ما قدروا الله حق قدره، وكيف يقدره حق قدره، أو يعظمـه ويكـبره، ويرجو وقاره ويجله مـن يهون عليه أمره ونهيه؟ هذا من أمحل المحـال، وأبين الباطل. وكفى بالعاصي عقوبـة أن يضمحل من قلبـه تعظيم الله جل جلاله، وتعظيم حرماته، ويهون عليه حقه)[1].

(١) الجواب الكافي: (٩٩).

ويقول أيضاً: (على قدر المعرفة يكون تعظيم الرب تعالى في القلب، وأعرف الناس به أشدهم له تعظيماً وإجلالاً... وروح العبادة هو الإجلال والمحبة، فإذا تخلى أحدهما عن الآخر فسدت، فإذا اقترن بهذين الثناء على المحبوب المعظم، فذلك حقيقة الحمد، والله ﷻ أعلم)[١].

وقال هرم بن حيان لأويس القرني: أوصني. قال: توسَّد الموت إذا نمت، واجعله نصب عينيك، وإذا قمت فادع الله أن يصلح لك قلبك ونيتك، فلن تعالج شيئاً أشد عليك منهما، بينا قلبك معك ونيتك إذا هو مدبر، وبينا هو مدبر إذا هو مقبل، ولا تنظر في صغر الخطيئة، ولكن انظر إلى عظمة من عصيت)[٢].

ومن علامات تعظيم حرمات الله ﷻ الدالة على صلاح السريرة: الغيرة على محارم الله ﷻ إذا انتهكت، والغضب لله تعالى حينما تتعدى حدوده، لأن هذا من شواهد محبته ﷻ، وفي ذلك يقول ابن عقيل في الفنون: (فأين رائحة الإيمان منك

(١) مدارج السالكين: (٢/ ٤٩٥).
(٢) صفة الصفوة: (٣/ ٥٥).

وأنـت لا يتغـير وجهك فضلاً عن أن تتكلـم ومخالفة الله ﷻ واقعة من كل معاشر ومجاور، فلا تزال معاصي الله ﷻ والكفر يزيد، وحريم الشرع يُنتَهك، فلا إنكار ولا منكر، ولا مفارقة لمرتكب ذلك ولا هجران له، وهذا غاية بَرْد القلب وسكون النفس، وما كان ذلك في قلب قطُّ شيءٌ من إيمان، لأن الغيرة أقل شواهد المحبة والاعتقاد)[١].

ويجلي الإمـام ابـن القيم رحمـه الله تعـالى هـذه الحقيقة بقولـه: (ومـن له خبرة بـما بعث الله به رسـوله ﷺ، وبما كان عليـه هو وأصحابه رأى أن أكثر من يُشـار إليهم بالدين، هم أقل الناس ديناً والله المستعان. وأيّ دين وأي خير فيمن يرى محارم الله تُنتَهك، وحدوده تضاع، ودينه يترك، وسـنة رسول الله ﷺ يرغب عنها، وهو بارد القلب ساكت اللسان، شيطان أخرس، كما أن المتكلم بالباطل شيطان ناطق؟ وهل بلية الدين إلا من هؤلاء الذين إذا سـلمت لهم مآكلهم ورياساتُهم، فلا مبالاة بما جرى عـلى الدين؟ وخيارهم المُتَحَزِّن المُتَلَمِّظ، ولو نـوزع في بعـض مـا فيه غضاضة عليـه في جاهـه أو ماله بذل

(١) الآداب الشرعية: (١/ ٩٥).

وتبذل وجد واجتهد، واستعمل مراتب الإنكار الثلاثة بحسب وسعه. وهؤلاء مع سقوطهم من عين الله، ومقت الله لهم قد بلوا في الدنيا بأعظم بلية تكون، وهم لا يشعرون، وهو موت القلوب، فإن القلب كلما كانت حياته أتم، كان غضبه لله ورسوله أقوى، وانتصاره للدين أكمل)[١].

• **العلامة الخامسة: التصديق بالخبر والإذعان للأمر:**

وقد سبق ذكر هذا الوصف في مبحث تعريف السريرة الصالحة والقلب السليم في قول ابن القيم رحمه الله تعالى: (اعلم أن التسليم هو الخلاص من شبهة تعارض الخبر، أو شهوة تعارض الأمر أو إرادة تعارض الإخلاص، أو اعتراض يعارض القدر والشرع)[٢].

وهذه العلامة يعرفها العبد من نفسه، فإذا وجدها فليحمد الله تعالى، لأن هذا هو وصف القلب السليم والسريرة الصالحة وإن وجد ضد ذلك سواء من اعتراض على الخبر بشبهة، أو رد للأمر بشهوة فليبادر إلى إصلاح هذا الفساد

(١) أعلام الموقعين: (٢/ ١٦٤، ١٦٥).
(٢) مدارج السالكين: (٢/ ١٤٧).

وتصفيـة القلـب قبـل أن يتمكـن مـن القلـب فيهلكه ويحق الخسران على صاحبه والعياذ بالله ﷻ. والتصديق بالخبر يعني التسليم لأخبار الله ﷻ، التي جاءت في كتابه ﷻ، أو على لسان رسوله ﷺ من الأخبار الماضية أو المستقبلية أو الغيوب، التي حجبـت العقول عـن إدراكها، فيؤمن بهـا، ويصدق بها دون أدنى شبهة أو اعتراض.

أما التسليم والإذعان للحكم فهو نوعان:

الأول: التسليم لأحكام الله الشرعية والإذعان لها، واليقين بأنهـا الخير والمصلحة سـواء علمـت الحكمة منهـا أم لم تعلم. قـال ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٣٦]، وقال ﷻ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

الثانـي: التسـليم لأحـكام الله الكونية القدرية، واليقين بأن فيها الحكمة البالغة سـواء ظهر ذلك للعقول أم لم يظهر، ولا يتعـارض مع التسـليم لأحـكام الله القدريـة، مدافعة ما

أمكن مدافعته منها، بل إن الله ﷻ أمرنا بمدافعة أقداره بأقداره: كمدافعة المرض بالعلاج والجوع بالأكل، فإن لم يأذن الله ﷻ بدفعها لحكمة يعلمها فيجب حينئذ التسليم والرضا بقدر الله ﷻ وقضائه، والحذر من أن يكون في القلب أدنى شبهة، من شأنها إساءة الظن بالله ﷻ، أو الاعتراض على حكمه فإن هذا من فساد السريرة.

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: (ذروة الإيمان: الصبر للحكم، والرضى بالقدر، والإخلاص في التوكل، والاستسلام للرب ﷻ)[1].

ومن لوازم الرضى والتسليم لأحكام الله ﷻ القدرية سلامة القلب من الغش والدغل والغل. وفي ذلك يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: (إن الرضى يفتح له باب السلامة. فيجعل قلبه سليماً نقيًّا من الغش والدغَل والغِل. ولا ينجو من عذاب الله إلا من أتى الله بقلب سليم. كذلك وتستحيل سلامة القلب مع السخط وعدم الرضى. وكلما كان العبد أشد رضى كان قلبه أسلم. فالخبث والدغل والغش: قرين

(١) حلية الأولياء: (١/ ٢١٦).

السـخط. وسـلامة القلـب وبـره ونصحـه: قريـن الـرضى. وكذلك الحسـد: هو من ثمرات السخط. وسلامة القلب منه من ثمرات الرضى)[١].

• العلامة السادسة: أداء الأعمال الصالحة وترك المنهيات، تعبداً لله ﷻ (محبة وخوفاً ورجاءً)، وليس من باب الإلف والعادة:

إن اسـتحضار معنـى العبوديـة لله ﷻ حـين أداء العمـل الصالـح شرط في قبوله، والحصول على ثماره اليانعة في الدنيا والآخرة، وحينما يصاحب العامل شـعور العبودية لله ﷻ، فإنه يكون محافظاً على شروط صحتها وقبولها عند الله تعالى، وأهم هـذه الشروط الإخـلاص لله تعالى والمتابعة لرسـول الله ﷺ، وكلما كان شـهود معنـى العبودية لله تعـالى في الأعمال أقوى وأكمـل كان ذلك دليـلاً على قوة الإيـمان في القلب وصلاح السريرة. وعندما يغفل العبد عن شـهود العبودية لله تعالى في أداء الأعـمال وتـرك النواهي، فإن باعث العـادة والإلف هو الـذي يغلب على أعماله، ومن ثـم تضعف ثمار هذه الأعمال، وقد يخسرها عند الله ﷻ.

(١) مدارج السالكين: (٢/ ٢٠٧).

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى في منزلة التواضع: (التواضع بأن تخدم الحق ﷻ وتعبده بما أمرك به على مقتضى أمره، لا على ما تراه من رأيك، ولا يكون الباعث لك داعي العادة كما هو باعث من لا بصيرة له، غير أنه اعتاد أمراً فجرى عليه، ولو اعتاد ضده لكان كذلك. وحاصله: أنه لا يكون باعثه على العبودية مجرد رأي وموافقة هوى ومحبة وعادة، بل الباعث مجرد الأمر. والرأي والمحبة والهوى والعوائد منفذة تابعة، لا أنها مطاعة باعثة، وهذه نكتة لا ينتبه لها إلا أهل البصائر)(١).

ويقول ابن الجوزي رحمه الله تعالى: (رأيت عادات الناس قد غلبت على عملهم بالشرع. فهم يستوحشون من فعل الشيء لعدم جريان العادة لا لنهي الشرع... ونرى خلقاً يحافظون على صلاة الرغائب، ويتوانون عن الفرائض... ومنهم من يعلم أن أصل ماله حرام، ويصعب عليه فراقه للعادة... وإن وقعت موافقة للشرع فكما اتفق أو لأجل العادة، فإن الإنسان لو ضرب بالسياط ما أفطر في رمضان عادة قد استمرأت، ويأخذ أعراض الناس وأموالهم عادة غالبة)(٢).

(١) مدارج السالكين: (٢/ ٣٣٨).
(٢) صيد الخاطر: (٢٣١).

ويـشرح ابن القيم رحمه الله تعالى قـول الهروي في منزلة التهذيـب: (وهو على ثلاث درجات. الأولى: تهذيب الخدمة أن لا يخالجها جهالة، ولا يشوبها عادة، ولا يقف عندها همة).

فيقول في شرحه لقوله «لا يشوبها عادة»: (شوب العادة. وهو أن يمازج العبودية حكم من أحكام عوائد النفس تكون منفـذة لها، معينة عليهـا. وصاحبهـا يعتقدها قربـة وطاعة، كمن اعتاد الصوم -مثلاً- وتمرن عليه. فألِفَتْه النفس، وصار لها عادة تتقاضاها أشد اقتضاء. فيظن أن هذا التقاضي محض العبودية، وإنما هو تقاضي العادة.

وعلامـة هـذا: أنـه إذا عـرض عليها طاعـة دون ذلك، وأيسر منه، وأتم مصلحة لم تؤثرها إيثارها لما اعتادته وألفته. كما حكي عـن بعض الصالحين مـن الصوفية قال: حججت كـذا وكذا حجـة عـلى التجريد، فبـان لي أن جميـع ذلك كان مشـوباً بحظي. وذلك أن والدتي سألتني أن أستقي لها جرعة مـاء، فثقـل ذلك عـلى نفسي. فعلمـت أن مطاوعـة نفسي في الحجَّـات كان لحظ نفـسي وإرادتها. إذ لو كانت نفسي فانية لم يصعب عليها ما هو حق في الشرع)[١].

---

(١) مدارج السالكين: (٢/ ٩٨، ٩٩).

مثالان من الواقع:

المثال الأول: رأيته بعيني وحز في نفسي، وذلك في أثناء رحلة من الرحلات الخارجية، سافرت فيها في سنة من السنوات من بلدي. وكان معنا بعض العوائل ومن بينهم أسرة من زوج وزوجة وابن لهما، وكانت المرأة قبل إقلاع الطائرة من بلدها محتشمة متسترة قد غطت وجهها وشعرها وسائر جسدها بخمار وعباءة، ولكنها ويا للأسف ما إن أقلعت الطائرة واستوت في الفضاء حتى لفت تلك العباءة ونزعت ذلك الخمار ودستهما في حقيبتها اليدوية، ثم أصبحت سافرة الرأس والشعر والوجه! ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. فعلى أي شيء يدل هذا، إنه يدل على رقة الدين وغياب التعبد لله ﷻ في تنفيذ أحكامه، وإنما هو العادة والإلف المنبتة عن العقيدة والخوف من الله ﷻ.

المثال الثاني: القيام ببعض الأنشطة الدعوية من باب الإلف والعادة: ويقع في ذلك كثير من شباب الدعوة والعاملين في الإغاثة والمناشط الدعوية المختلفة، حيث نرى الكثير منهم يبذل وقته وجهده ويتحمل في ذلك السهر والتعب والسفر

دون ملل ولا فتور نسأل الله ﷻ أن يثيبهم على ذلك. ولكن ما يجب التنبيه عليه هنا هو أن باعث الإلف والعادة والتلذذ لهذه الأعمال أفقدها عند بعضهم شهود التعبد لله ﷻ فيها، ومن الأدلة على ذلك أن يوجد من هؤلاء الشباب من هو مقصر جدًّا في خدمة والديه أو أحدهما، بحيث أصبحنا نسمع الشكاوى من الأب أو الأم تجاه أبنائهم الملتزمين، وبأنهم يتثاقلون في تلبية طلبات والديهم ولو كان في أمر يسير كإحضار حاجة للبيت، أو إيصال الأب أو الأم لزيارة قريب لهما، لا يستدعي أحياناً دقائق من الوقت. وهنا يقال: أين النشاط المتواصل والسهر والتعب في مناشط الدعوة، الذي قد يستغرق ساعات، بل أياماً دون ملل ولا تعب لماذا لم يحصل التثاقل هنا، وحصل عند حاجة الوالدين مع فارق الوقت الذي يكون في العملين؟ أليس كلاهما عبادة؟ بل إن عبادة بر الوالدين والإحسان إليهما لا يتقدمها إلا الواجبات الكبرى، وهي مقدمة على من دونها. والجواب على هذه المفارقة والله أعلم: أن باعث العمل الدعوي عند البعض تغلب عليه العادة والإلف وحظ النفس. وبر الوالدين وخدمتهما لم تتعود عليه النفس، ولا حظ لها فيه، فصار ثقيلاً.

• العلامة السابعة: صاحب السريرة الصالحة متواضع للحق والخلق، وهو يألف ويؤلف:

يصف الرسول ﷺ المؤمن بقوله: «**المؤمن مؤلف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف**»(١).

وقال أيضاً: «**ألا أخبركم بمن يحرم على النار أو تحرم عليه النار؟! تحرم على كل قريب هين لين سهل**»(٢).

ويبين ابن القيم رحمه الله تعالى بعض صفات الصديقين، فيقول: (فإذا تمكن العبد في حاله، وصار له إقبال على الله، وجمعية عليه -ملكةً ومقاماً راسخاً- أنس بالخلق وأنسوا به، وانبسط إليهم وحملهم على ضَلَعهم وبطء سيرهم. فعكفت القلوب على محبته للطفه وظرفه. فإن الناس ينفرون من الكثيف ولو بلغ في الدين ما بلغ. ولله ما يجلب اللطف والظرف من القلوب، ويدفع عن صاحبه من الشر، ويسهل له ما توعَّر على غيره. فليس الثقلاء بخواص الأولياء، وما ثقل أحد على

(١) مسند أحمد: (٨٨٣١)، وحسنه الشيخ شعيب الأرناؤوط.
(٢) الترمذي في صفة القيامة، باب (٤٥)، وقال هذا حديث حسن غريب، وصححه الألباني في صحيح الترمذي: (٢٠٢٢).

قلـوب الصادقـين المخلصـين إلا مـن آفـة هنـاك. وإلا فهذه الطريق تكسـو العبد حلاوة، ولطافة وظرفـاً. فترى الصادق فيهـا من أحلى الناس، وألطفهم وأظرفهم. قد زالت عنه ثقالة النفـس، وكدورة الطبـع، وصار روحانيًّا سـمائيًّا، بعد أن كان حيوانيًّـا أرضيًّـا فتراه أكـرم الناس عـشرة، وألينهـم عريكة، وألطفهـم قلبـاً وروحـاً، وهذه خاصيـة المحبـة، فإنها تلطف وتظـرف وتنظف، ومن ظرف هذه الطبقة أن لا يظهر أحدهم على جليسـه بحـال ولا مقـام، ولا يواجهه إذ لقيـه بالحال بل بلين الجانب وخفض الجناح وطلاقة الوجه فيفرش له بسـاط الأنس، ويجلسه عليه، فهو أحب إليه من الفرش الوثيرة)[1].

والتواضع الذي هو من علامات السريرة الصالحة قسمان:

١- التواضع للحق وقبوله والانقياد له.

٢- التواضع للخلق وعدم التكبر والتعالي عليهم.

وقد بين ﷺ هذين القسمين بذكر ما يضادهما من نوعي الكبر، وذلك في قوله: **«الكبر بطر الحق، وغمط الناس»**[2].

---

(١) مدارج السالكين: (٣/ ١٨٠، ١٨١).

(٢) مسلم: (٩١).

وصاحب السريرة الصالحة لا تراه إلا منقاداً للحق مسلماً له مستسلماً، لا يعارضه بشبهات عقلية ولا شهوات قلبية.

كما أنه متواضع لعباد الله ﷻ، لا يرى له فضلاً عليهم، ولا يحتقرهم، فضلاً عن أن يتفاخر أو يتعالى عليهم. ومن تواضعه لهم قبول معذرة من أساء إليه منهم، ولو كان في عذره خلل.

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: (إن التواضع يتولد من بين العلم بالله ﷻ ومعرفة أسمائه وصفاته ونعوت جلاله وتعظيمه ومحبته وإجلاله، ومن معرفته بنفسه وتفاصيلها وعيوب عملها وآفاتها.

فيتولّد من بين ذلك كله خلقٌ هو التواضع، وهو: انكسار القلب لله، وخفض جناح الذل والرحمة بعباده، فلا يرى له على أحدٍ فضلاً، ولا يرى له عند أحدٍ حقًّا، بل يرى الفضل للناس عليه، والحقوق لهم قِبَلَه، وهذا خُلقٌ إنما يُعطيه الله ﷻ من يُحبُّه ويُكرمه ويُقرِّبه)[1].

---

(١) الفوائد: (١٥٧، ١٥٨) باختصار.

ويتحدث الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى عن صور التواضع للدين والحق، فيقول: (التواضع للدين: هو الانقياد لما جاء به الرسول ﷺ، والاستسلام له، والإذعان. وذلك بثلاثة أشياء:

الأول: أن لا يعارض شيئاً مما جاء به بشيء من المعارضات الأربعة السارية في العالم، المسماة: بالمعقول، والقياس، والذوق، والسياسة.

فالأولى: للمنحرفين من أهل الكبر من المتكلمين، الذي عارضوا نصوص الوحي بمعقولاتهم الفاسدة. وقالوا: إذا تعارض العقل والنقل قدمنا العقل، وعزلنا النقل. إما عزل تفويض، وإما عزل تأويل.

والثانية: للمتكبرين من المنتسبين إلى الفقه، قالوا: إذا تعارض القياس والرأي والنصوص قدمنا القياس على النص، ولم نلتفت إليه.

والثالثة: للمتكبرين المنحرفين من المنتسبين إلى التصوف والزهد. فإذا تعارض عندهم الذوق والأمر. قدموا الذوق والحال، لم يعبأوا بالأمر.

والرابعة: للمتكبرين المنحرفين من الولاة والأمراء الجائرين. إذا تعارضت عندهم الشريعة والسياسة. قدموا السياسة، ولم يلتفتوا إلى حكم الشريعة.

فهؤلاء الأربعة: هم أهل الكبر. والتواضع التخلص من ذلك كله)[١].

نماذج من تواضع السلف للحق ووصاياهم في ذلك:

ما كتبه عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما في كتابه المشهور في القضاء، وفيه: (... ولا يمنعك من قضاء قضيت به اليوم فراجعت فيه نفسك، وهديت فيه لرشدك: أن تراجع فيه الحق، فإن الحق قديم، ولا يبطل الحق شيء، وإن مراجعة الحق خير من التمادي في الباطل)[٢].

وعن عبدالرحمن بن عبدالله بن مسعود، عن أبيه قال: (أتاه رجل فقال: يا أبا عبدالرحمن علمني كلمات جوامع نوافع. فقال له عبدالله: لا تشرك به شيئاً، وزُل مع القرآن حيث زال،

(١) مدارج السالكين: (٢/ ٣٤٧).
(٢) سنن الدارقطني: (٤/ ٢٠٦).

ومن جاءك بالحق فاقبل منه وإن كان بعيداً بغيضاً، ومن جاءك بالباطل فاردده عليه وإن كان حبيباً قريباً)[١].

وقال الذهبي: وفي (مسند الشافعي سماعًا): أخبرني أبو حنيفة بن سماك، حدثني ابن أبي ذئب عن المقْبُري عن أبي شُريح أن رسول الله ﷺ قال: **«من قُتل له قتيلُ فهو بخير النَّظَرَيْن: إن أحب أخذ العقل، وإنْ أحب فله القَوَدُ»**[٢].

قلتُ لابن أبي ذئب: أتأخذ بهذا؟ فضرب صدري، وصاح كثيراً، ونال مني، وقال: أحدِّثك عن رسول الله ﷺ وتقول: تأخذ به؟ نَعَم آخذُ به، وذلك الفرض عليَّ، وعلى كل مَن سمعَه. إن الله اختار محمداً ﷺ من الناس فهداهم به، وعلى يديه، فعلى الخلق أن يتبعوه طائعين أو داخرين، لا مخرج لمسلم من ذلك)[٣].

وقال الربيع: سمعت الشافعي يقول: إذا وجدتم في كتابي خلاف سنَّة رسول الله ﷺ فقولوا بها، ودعُوا ما قلتُه[٤].

---

(١) صفة الصفوة: (١/ ٤١٩).
(٢) رواه البخاري بلفظ قريب: (٦٨٨٠)، ومسلم: (١٣٥٥).
(٣) رواه أبو داود: (٤٥٠٤)، وأصله في البخاري: (٦٨٨٠)، ومسلم: (١٣٥٥).
(٤) سير أعلام النبلاء: (١٠/ ٣٤).

وعنه أيضاً: وسمعتُه يقول: وقد قال له رجل: تأخذُ بهذا الحديث يا أبا عبدالله؟ فقال: متى رَوَيتُ عن رسول الله ﷺ حديثاً صحيحاً ولم آخُذْ به، فأشهدكم أن عقلي قد ذَهب[١].

وقال الحميدي: روى الشافعي يوماً حديثاً، فقلتُ: أتأخذُ به؟ فقال أرأيتني خرجتُ من كنيسة، أو عليَّ زُنَّارٌ، حتى إذا سمعتُ عن رسول الله ﷺ حديثاً لا أقول به؟![٢].

وقال الربيع: سمعت الشافعي يقول: أي سماء تُظلني، وأيُّ أرض تقلني إذا رويتُ عن رسول الله ﷺ حديثاً فلم أقُل به[٣].

وعن الشافعي قال: ما كابرني أحدٌ على الحق ودافع إلا سقَطَ من عيني، ولا قبله إلا هبته واعتقدت مودته)[٤].

ويحكي ابن رجب رحمه الله تعالى أن ذلك كان هدياً لعامة أئمة السلف، فيقول: (كان أئمة السلف المجمع على علمهم

---

(١) سير أعلام النبلاء: (١٠/ ٣٤).
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق: (١٠/ ٣٥).
(٤) سير أعلام النبلاء: (١٠/ ٣٣).

وفضلهـم، يقبلون الحق ممـن أورده عليهـم، وإن كان صغيراً، ويوصـون أصحابهم وأتباعهـم بقبول الحـق إذا ظهر في غير قولهم)[١].

ويعلـق الإمام ابن القيم رحمـه الله تعالى على قوله ﷺ في دعائـه: **«وأسـألك كلمة الحـق في الغضب والرضـا»** بقوله: (ولـما كان أكثر الناس إنما يتكلم بالحق في رضاه، فإذا غضب أخرجه غضبه إلى الباطل، وقد يدخله أيضاً رضاه في الباطل، سأل الله ﷻ أن يوفقه لكلمة الحق في الغضب والرضا، ولهذا قـال بعض السـلف: لا تكن ممـن إذا رضي أدخلـه رضاه في الباطل، وإذا غضب أخرجه غضبه من الحق)[٢].

وذكر محمد بن حارث في أخبار سـحنون بن سعيد عنه، قال: كان مالك وعبدالعزيز بن أبي سـلمة ومحمد بن إبراهيم ابن دينار وغيرهم يختلفون إلى ابن هرمز، فكان إذا سأله مالك وعبدالعزيز أجابهما، وإذا سـأله ابن دينـار وذووه لا يجيبهم، فتعرض له ابن دينار يوماً، فقال له: يا أبا بكر لم تسـتحل مني

(١) الفرق بين النصيحة والتعيير: (ص ١٠).
(٢) إغاثة اللهفان: (١/ ٢٩).

ما لا يحل لك؟ فقال له: يا ابن أخي وما ذاك؟ قال: يسألك مالك وعبدالعزيز فتجيبهما، وأسألك أنا وذويي فلا تجيبنا؟! فقال: أوقع ذلك يا ابن أخي في قلبك؟ قال: نعم. قال: إني قد كبرت سني ودق عظمي، وأنا أخاف أن يكون خالطني في عقلي مثل الذي خالطني في بدني، ومالك وعبدالعزيز عالمان فقيهان إذا سمعا مني حقًّا قبلاه، وإن سمعا مني خطأ تركاه، وأنت وذووك ما أجبتكم به قبلتموه.

قال ابن حارث: (هذا والله الدين الكامل والعقل الراجح، لا كمن يأتي بالهذيان، ويريد أن ينزل قوله من القلوب منزلة القرآن)[١].

نماذج من تواضع السلف للخلق:

قال عروة بن الزبير ﷺ: رأيت عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ على عاتقه قِربة ماء، فقلت: (يا أمير المؤمنين، لا ينبغي لك هذا. فقال: لما أتاني الوفود سامعين مطيعين. دخلت نفسي نخوة. فأردت أن أكسرها)[٢].

(١) أعلام الموقعين: (٢/ ١٩٨).

(٢) مدارج السالكين، لابن القيم: (٢/ ٣٣٠، ٣٣١).

وولي أبو هريرة رضي الله عنه إمارة مرة. فكان يحمل حُزْمة الحطب على ظهره. ويقول: طرِّقوا للأمير[١].

وركب زيد بن ثابت مرة. فدنا ابن عباس ليأخذ بركابه. فقال: مَه يا ابن عم رسول الله! فقال: هكذا أُمرنا أن نفعل بكبرائنا. فقال: أرني يدك. فأخرجها إليه فقبلها. فقال: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت رسول الله ﷺ[٢].

وقسم عمر بن الخطاب رضي الله عنه بين الصحابة رضي الله عنهم حللا، فبعث إلى معاذ حُلة مثمنة. فباعها واشترى بثمنها ستة أعبدٍ وأعتقهم. فبلغ ذلك عمر، فبعث إليه بعد ذلك حلة دونها. فعاتبه معاذ، فقال عمر: لأنك بعت الأولى. فقال معاذ: وما عليك؟ ادفع لي نصيبي. وقد حلفت لأضربن بها رأسك فقال عمر رضي الله عنه: رأسي بين يديك. وقد يرفق الشاب بالشيخ[٣].

ومر الحسن على صبيان معهم كِسرَ خبز. فاستضافوه فنزل فأكل معهم، ثم حملهم إلى منزله، فأطعمهم وكساهم،

(١) مدارج السالكين، لابن القيم: (٢/ ٣٣٠، ٣٣١).
(٢) المرجع السابق.
(٣) المرجع السابق.

وقال: اليد لهم. لأنهم لا يجدون شيئاً غير ما أطعموني، ونحن نجد أكثر منه[١].

ويذكر أن أبا ذرّ رضي الله عنه عَيَّر بلالا رضي الله عنه بسواده، ثم ندم. فألقى بنفسه، فحلف: لا رفعت رأسي حتى يطأ بلال خدِّي بقدمه. فلم يرفع رأسه حتى فعل بلال[٢].

وقال رجاء بن حيوة. قوَّمت ثياب عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه -وهو يخطب- باثني عشر درهما. وكانت قباء وعمامة وقميصاً وسراويل ورداء وخفين وقلنسوة[٣].

ورأى محمد بن واسع ابناً له يمشي مشية منكرة. فقال: تدري بكم شريت أمك؟ بثلاثمائة درهم، وأبوك -لا كَثَّر الله في المسلمين مثله- أنا. وأنت تمشي هذه المشية؟[٤].

وعن علي بن ثابت قال: (ما رأيت الثوري في صدر مجلس قط إنما كان يقعد إلى جنب الحائط، ويجمع بين ركبتيه)[٥].

(١) مدارج السالكين، لابن القيم: (٢/ ٣٣٠، ٣٣١).
(٢) المرجع السابق.
(٣) المرجع السابق.
(٤) المرجع السابق.
(٥) الحلية: (٦/ ٣٧٨).

وعـن مطرف قال: مـا مدحني أحـد إلا تصاغرت عليَّ نفسي[1].

وعـن رجاء بن حيوة قال: (سـمرت ليلـة عند عمر بن عبدالعزيز فاعتل السراج، فذهبت أقوم أصلحه فأمرني عمر بالجلـوس، ثم قام فأصلحه ثم عاد فجلس، فقال: قمت وأنا عمر بن عبدالعزيز، وجلست وأنا عمر بن عبدالعزيز، ولؤم بالرجل إن استخدم ضيفه)[2].

وعـن كنانة بن جبلة السـلمي قال: قال بكر بن عبدالله: إذا رأيت من هو أكبر منك، فقل: هذا سبقني بالإيمان والعمل الصالح فهو خير مني، وإذا رأيت من هو أصغر منك، فقل: سبقتُه إلى الذنوب والمعاصي فهو خير مني، وإذا رأيت إخوانك يكرمونك ويعظّمونك فقل: هذا فضلٌ أخذوا به، وإذا رأيت منهم تقصيراً فقل: هذا ذنب أحدثته)[3].

---

(١) الحلية: (٢/ ١٩٨).

(٢) الحلية: (٥/ ٣٣٢).

(٣) صفة الصفوة: (٣/ ٢٤٨).

• العلامة الثامنة: محبة الخير لجميع المسلمين، والحرص على اجتماع الكلمة ونبذ الفرقة:

المسلم الصالح السريرة صاحب القلب السليم لا ينطوي قلبه على غل أو غش أو حقد على أحد من المسلمين بل يحب الخير لهم كما يحبه لنفسه ممتثلاً قوله ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»[(١)]، ومقتضى هذا الحديث أن يكره لهم ما يكره لنفسه، يفرح لفرحهم ويحزن لمصابهم. وفي ذلك يقول الإمام ابن رجب رحمه الله تعالى: (وقد استحسن الإمام أحمد ما حكي عن حاتم الأصم أنه قيل له: أنت رجل أعجمي لا تفصح، وما ناظرك أحد إلا قطعته، فبأي شيء تغلب خصمك؟ فقال: بثلاث: أفرح إذا أصاب خصمي، وأحزن إذا أخطأ، وأحفظ لساني عنه أن أقول له ما يسوؤه، أو معنى هذا، فقال أحمد: ما أعقله من رجل)[(٢)].

ومن لوازم حب الخير للمسلمين طهارة القلب من الحقد والحسد. والحسد مرض من أمراض القلوب الشائعة

(١) البخاري: (١٣)، مسلم (٤٥)، واللفظ للبخاري.
(٢) الفرق بين النصيحة والتعيير: (ص ٣٢).

بين الناس وحقيقته الاعتراض على قدر الله ﷻ، وحكمته في المنع والعطاء والشدة والرخاء. وماهية الحسد كراهية نعمة الله ﷻ على عبد من عباده، وتمني زوالها عن صاحبها. وللحسد غوائل وأخطار مهلكة للدين، ويدل على فساد في السريرة، وله أسباب عدة منها:

١- العداوة والبغضاء، وهو أشد أبواب الحسد.

٢- التعزز، وحاصله أن يثقل على الحاسد أن يترفع عليه المحسود في دنيا أو دين.

٣- التكبر واحتقار الغير، وتوقع انقيادهم ومتابعتهم له، فإذا أصابهم نعمة وارتفع حالهم خاف الحاسد أن ينقلب الحال عليه وينفض الناس عنه.

٤- المماثلة والمساواة، وهذه في العادة تكون بين الأقران في دنيا أو دين.

٥- الخوف من فوت المقاصد وذلك يختص بمتزاحمين على مقصود واحد، فإن كل منهما يحسد صاحبه في كل نعمة تكون عوناً له على الانفراد بمقصوده.

٦- حب الرياسة وطلب الجاه والثناء، فينشأ الحسد من طالب ذلك لكل من يراه أو يسمع به ممن يساميه، أو يكون نظيراً له.

٧- خبث النفس وشحها بالخير لعباد الله تعالى، والفرح بالشرور عليهم[١].

والموفق من وفقه الله ﷻ، وأصلح سريرته، وطهرها من هذا المرض العضال، ووفقه للأخذ بأسباب علاج الحسد، وهي على قسمين:

الأول: قسم علمي: وهو مداواة الحسد بالعلم النافع لمرض الحسد، وهو الرضى بقدر الله ﷻ، وحكمته في منعه وعطائه وقسمه، والعلم بأن الحسد ضرر على صاحبه في الدنيا والآخرة، وأن المحسود لا يتضرر بحسد الحاسد، بل قد ينتفع.

الثاني: قسم عملي: وهو مداواة الحسد بالعمل النافع، وهو أن يكلف الحاسد نفسه نقيض قصده، فإن بعثه الحسد على ذم المحسود، فإنه يكلف لسانه المدح والثناء على المحسود، وإن حمله التكبر ألزم نفسه التواضع، والاعتذار إليه والدعاء له وبذل الأسباب في إيصال الخير له، وكبح الشر عنه.

(١) انظر: تصفية القلوب، يحيى بن حمزة اليماني: (ص ١٧٥ ١٧٨).

ومـن لـوازم حـب الخـير للمسـلمين المحبـة لاجتـماع كلمتهـم، ولاسـيما دعاتهم ومجاهديهم، يحـب ذلك من قلبه، ويفـرح به، ويسـعى بقوله وفعله لجمع الكلمـة ونبذ الفرقة، وقـد ضرب شـيخ الإسـلام ابن تيميـة رحمه الله تعـالى أروع الأمثلة في ذلك. وذلك في رسالته إلى تلاميذه، يأمرهم بجمع الكلمة، وتأليف القلوب، وإصلاح ذات البين.

يقول رحمـه الله تعالى: (وتعلمون مـن القواعد العظيمة -التي هي من جماع الدين- تأليف القلوب، واجتماع الكلمة، وصـلاح ذات البـين، فـإن الله تعـالى يقـول: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ [آل عمـران: ١٠٣]، ويقـول: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، وأمثال ذلك مـن النصوص التـي تأمـر بالجماعة والائتـلاف. وأهل هـذا الأصل هم أهل الجماعة، كـما أن الخارجين عنه هم أهل الفرقة...) إلى أن قال في الرسالة نفسها:

(وأول ما أبدأ به من هذا الأصل: ما يتعلق بي، فتعلمون رضي الله عنكـم جميعاً: أني لا أحب أن يؤذى أحد من عموم

المسلمين -فضلاً عن أصحابنا- بشيء أصلاً، لا باطناً، ولا ظاهراً، ولا عندي عتب على أحد منهم، ولا لوم أصلاً، بل لهم عندي من الكرامة والإجلال والمحبة والتعظيم أضعاف أضعاف ما كان، كل بحسبه.

ولا يخلو الرجل إما أن يكون مجتهداً مصيباً، أو مخطئاً، أو مذنباً، فالأول: مشكور، والثاني: أجره على الاجتهاد، فمعفو عنه مغفور له، والثالث: يغفر الله لنا وله ولسائر المؤمنين، فنطوي بساط الكلام المخالف لهذا الأصل، كقول القائل: فلان كان سبب هذه القضية، فإني لا أسامح من آذاهم من هذا الباب، ولا حول ولا قوة إلا بالله، بل مثل هذا يعود على قائله بالملام، إلا أن يكون له من حسنة، وممن يغفر الله له إن شاء، وقد عفا الله عما سلف...) إلى أن قال رحمه الله في الرسالة نفسها:

(فلا أحب أن ينتصر من أحد بسبب كذبه عليَّ، أو ظلمه وعدوانه، فإني قد أحللت كل مسلم، وأنا أحب الخير لكل المسلمين، وأريد لكل مؤمن من الخير ما أحبه لنفسي، والذين كذبوا وظلموا منهم في حل من جهتي)[1].

(١) مجموع الفتاوى: (٢٨/ ٥١ ٥٧) باختصار.

ومن لوازم محبة الخير للمسلمين واجتماع كلمتهم الدالة على صلاح السريرة نبذ التعصب والحزبية المقيتة، ولاسيما بين المنتسبين لعقيدة واحدة ومنهاج واحد. فلا ترى صاحب القلب السليم والسريرة الصالحة إلا محبًّا لكل داعية وجماعة، تدعو إلى الله ﷻ على بصيرة ولو لم يعرفهم، أو يلتقي بهم يفرح بأي باب من الخير يفتحه الله ﷻ على يد من كان من عباده، ويفرح بأي باب من الشر يغلق على يد من كان ذلك، يحبهم ويدعو لهم، ويعينهم إن كان قادراً على ذلك.

وعن الفرق بين التحزب الممدوح والتحزب المذموم يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: (وأما رأس الحزب فإنه رأس الطائفة التي تتحزب - أي تصير حزباً - فإن كانوا مجتمعين على ما أمر الله به ورسوله ﷺ من غير زيادة ولا نقصان فهم مؤمنون، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم، وإن كانوا قد زادوا في ذلك ونقصوا مثل: التعصب لمن دخل في حزبهم بالحق والباطل، والإعراض عمن لم يدخل في حزبهم، سواء كان على الحق أو الباطل، فهذا من التفرق الذي ذمه الله تعالى ورسوله ﷺ، فإن الله ورسوله ﷺ أمرا بالجماعة والائتلاف،

ونهيا عن الفرقة والاختلاف، وأمرا بالتعاون على البر والتقوى، ونهيا عن التعاون على الإثم والعدوان)[١].

وإن ما سبق ذكره لا يعني ألا يوجد خلاف أبداً بين الأفراد أو الجماعات، كلا... فالخلاف - والله أعلم - أمر حتمي بحكم اختلاف الطبائع والمقومات الشخصية والفكرية والعقلية... إلخ، ولكن ليس كل اختلاف يوجب الفرقة والتنازع والتباغض، وأوضح مثال لذلك أن السلف رحمهم الله قد اختلفوا في كثير من المسائل،ومع ذلك كانت كلمتهم وقلوبهم مجتمعة ولم يتفرقوا، والكلام هنا منصب على من هم في دائرة أهل السنة والجماعة ولم يختلفوا في أصولها، أما المخالفون لأهل السنة من أهل الأهواء والبدع، فإن خلافنا معهم أصيل ومتعين، ومثل هؤلاء ينبغي أن نفارقهم ونتبرأ من بدعهم وضلالاتهم.

وإن الأمة - منذ عهد أصحاب النبي ﷺ - قد وقع بينهم اختلاف في بعض المسائل، ولم يؤد هذا الاختلاف إلى الفرقة، وعندما دخل الشيطان أو أولياؤه من الجن والإنس، وفسدت

---

(١) مجموع الفتاوى: (١١/ ٩٢).

بعض السرائر وصاحب ذلك جهل في مسائل الخلاف ما يجوز الخلاف فيها وما لا يجوز، أدى هذا إلى تحول الخلاف - الذي تحتمله الشريعة، وتسعه أقوال الصحابة ﷺ، ومن بعدهم من سلف هذه الأمة وأئمتهم - إلى عداوة وفرقة.

- **العلامة التاسعة: العدل والإنصاف:**

وهذه السمة الكريمة التي يعز وجودها في أكثر الناس اليوم، هي من أبرز صفات أهل القلوب السليمة والسرائر الصالحة، حيث إنه لا يوجد من هذه صفته إلا وهو من المعظمين لله تعالى في قلوبهم الخائفين منه المطيعين له في السراء والضراء على أنفسهم وعلى عباد الله ﷻ.

وصاحب القلب السليم، والسريرة الصالحة المخلص لله تعالى لا يُرى إلا عادلاً منصفاً، لا يبخس الناس حقوقهم ولا يجور عليهم، ولا ينسى خيرهم وبلاءهم، يتثبت في الأخبار، ولا يسارع بنقل الشائعات، يحب الخير للمسلمين، وينصف من نفسه ولا يكيل بمكيالين، رائده الحق يدور معه حيث دار.

ومن مظاهر العدل والإنصاف التي تدل على صلاح السريرة:

(أ) عدم قبول الأخبار والشائعات دون تثبت:

يقول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، وفي تفسير هذه الآية يقول الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى: (قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس يقول: لا تقل.

وقال العوفي عنه: لا تَرْم أحداً بما ليس لك به علم. وقال محمد ابن الحنفية: يعني شهادة الزور. وقال قتادة: لا تقل: رأيت، ولم تر، وسمعت، ولم تسمع، وعلمت، ولم تعلم، فإن الله سائلك عن ذلك كله. ومضمون ما ذكروه: أن الله تعالى نهى عن القول بلا علم، بل بالظن الذي هو التوهم والخيال، كما قال تعالى: ﴿ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾[الحجرات: ١٢][1] أ.هـ.

والتثبت من الأخبار والأقوال يعني التثبت من الأمور الآتية:

* التثبت من الخبر المنقول فقد يكون كذباً وافتراءً.

---

(١) تفسير ابن كثير: (٣/ ٣٩).

* وقد يكون الخبر صحيحاً، ولكن له ملابسات وظروف لم يذكرها الناقل، وبعد التثبت وتبين هذه الملابسات قد يظهر عذراً لأصحابها.
* وقد يكون الخبر بعد التثبت صحيحاً، وأنه لا عذر لأصحابه فيه، ولكن يظهر من التثبت أنه موقف خاص له ظروفه، وليس موقفاً عاماً ومنهجاً مطرداً، وإذا كان صاحب الخطأ عالي الهمة في العلم والدعوة والجهاد، احتملت له الهنات، وانغمر خطؤه في بحر حسناته.

والمقصود أن من لوازم العدل الذي هو من علامات الإخلاص لله ﷻ أن يتثبت فيما يقوله وينقله من الأخبار والأحكام، حتى لا يقع في ظلم العباد. ورحم الله الإمام ابن تيمية، حيث يقول: (والله يحب الكلام بعلم، وعدل ويكره الكلام بجهل وظلم)(١).

(ب) العدل في نقد المواقف الخاطئة:

لا عصمة لبني البشر إلا للرسل عليهم الصلاة والسلام، وكما قال الرسول ﷺ: «**كل بني آدم خطاء**»(٢) الحديث.

(١) مجموع الفتاوى: (١٦/ ٩٦).
(٢) الترمذي: (٢٤٤٩)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي: (٢٠٢٩).

وتكثر الأخطاء حينما يكون هناك عمل ونشاط، وبخاصة في ميادين الدعوة وكثرة النوازل والمفاجآت، والحاجة فيها إلى قرارات ومواقف سريعة. وحينئذ لابد لأهل الدعوة المباشرين له، والداعمين والمحبين له أن يقدروا هذه الظروف، وأن يحذروا العدوان في معالجة ونقد الأخطاء، وأن يجعلوا من سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام، والسلف الصالح قدوة صالحة في العدل والإنصاف.

والناس في موقفهم من الأخطاء ونقدهم لها ولأصحابها طرفان جائران ووسط عدل. وذلك حسب ما ينطوي عليه القلب من صلاح أو فساد.

الطرف الأول: أهل الغلو والإفراط:

وهم الذين أفرطوا في نقد الأخطاء وأصحابها، حتى جعلوا من الفروع أصولاً، ومن بعض الجزئيات كليات، وجعلوا همَّهم تصيد الأخطاء، والفرح بها وتضخيمها، ولم يرحموا من وقع فيها من المجاهدين وطلاب العلم، بل جاروا عليهم في ذلك حتى أساءوا الظن بهم، وبنواياهم،

ومقاصدهم، وبخسوهم حقهم، وأهدروا حسناتهم وما لهم من بلاء وجهاد ودعوة وعلم وعمل وتعليم.

ولا يخفى ما في هذا الموقف من عدوان، ومجانبة للعدل والإنصاف. وفي أمثال هؤلاء يقول الشعبي - رحمه الله تعالى -: (والله لو أصبتُ تسعاً وتسعين مرة، وأخطأت واحدة، لأخذوا الواحدة وتركوا التسع والتسعين)[١].

ولو أن هؤلاء المنتقدين حاسبوا أنفسهم، وسألوها حينما يخطئون: هل يودون أن يعاملهم إخوانهم بهذا المنهج الجائر، كما يعاملون غيرهم لكان في ذلك سبب لمراجعة أنفسهم، واكتشافهم لهذا المنهج الخاطئ في نقد الرجال ومعالجة الأخطاء.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى -: (فليس من شرط أولياء الله المتقين أن لا يكونوا مخطئين في بعض الأشياء خطأً مغفورًا لهم، بل ولا من شرطهم ترك الصغائر مطلقًا، بل ولا من شروطهم ترك الكبائر أو الكفر الذي تعقبه التوبة.

---

(١) حلية الأولياء: (٤/ ٣٢٠، ٣٢١).

وقد قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الزمر: ٣٣-٣٥]. فقد وصفهم الله بأنهم متقون. و(المتقون) هم أولياء الله. ومع هذا فأخبر أنه يكفر عنهم أسوء الذي عملوا. وهذا أمر متفق عليه بين أهل العلم والإيمان)[١].

ويعلق الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى - على قوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨]. فيقول: (فإذا كان قد نهى عباده أن يحملهم بغضهم لأعدائه أن لا يعدلوا عليهم مع ظهور عداوتهم ومخالفتهم وتكذيبهم لله ورسوله، فكيف يسوغ لمن يدعي الإيمان أن يحمله بغضه لطائفة منتسبة إلى الرسول تصيب وتخطئ على أن لا يعدل فيهم، بل يجرد لهم العداوة وأنواع الأذى، ولعله

---

(١) مجموع الفتاوى: (١١/ ٦٦، ٦٧).

لا يدري أنهم أولى بالله ورسـوله وما جاء به منه علماً وعملاً، ودعـوة إلى الله على بصيرة، وصـبراً من قومهم على الأذى في الله، وإقامة الحجة لله ومعذرة لمن خالفهم بالجهل)[١].

وكما يحب المرء في الناس أن يعدلوا معه، فكذلك الناس يحبون أن يعدل معهم في تناول عيوبهم، وأسوق بهذه المناسبة تلـك المحاورة النافعة التي بين فيها المسـور بين مخرمة لمعاوية ابـن أبي سـفيان ﷺ بعـض عيوبه، ومـاذا رد عليـه معاوية في ذلك، لتكون منهجاً في معالجة أخطائنا.

عـن عقيـل، ومعمر، عـن الزهـري، حدثني عـروة أن المسـور بن مخرمة أخبره أنه وفد عـلى معاوية، فقضى حاجته، ثم خلا به، فقال: يا مسور! ما فعل طعنك على الأئمة؟ قال: دعنا من هذا وأحسـن. قال: لا والله، لتكلمني بذات نفسك بالذي تعيب عليَّ. قال مسـور: فلم أترك شـيئاً أعيبه عليه إلا بينت له. فقال: لا أبرأ من الذنب. فهل تَعُدُّ لنا يا مسور ما نلي من الإصلاح في أمر العامة، فإن الحسنة بعشر أمثالها، أم تعد الذنوب، وتترك الإحسـان؟ قال: مـا تذكر إلا الذنوب. قال

(١) بدائع التفسير: (٢/ ١٠٥).

معاويـة: فإنا نعترف لله بكل ذنب أذنبناه، فهل لك يا مسـور ذنوب في خاصتك تخشـى أن تهلـكك إن لم تغفر؟ قال: نعم. قـال: فما يجعلك الله برجاء المغفرة أحق مني، فوالله ما ألي من الإصلاح أكثر مما تلي، ولكن والله لا أخير بين أمرين: بين الله وبين غيره، إلا اخترت الله على ما سـواه، وإني لعلى دين يقبل فيه العمل، ويجزى فيه بالحسـنات، ويجـزى فيه بالذنوب إلا أن يعفـو الله عنهـا، قـال: فخصمني. قال عروة: فلم أسـمع المسور ذكر معاوية إلا صلى عليه[(١)].

الطرف الثاني: أهل التفريط والإضاعة:

وهـؤلاء وإن كانـوا قـد فرطـوا في الأخـذ بالحـق ورد الباطل، ووقعوا في التقليد الأعمى، إلا إنهم وقعوا في المقابل في الغلـو في الرجـال، والتعصـب لأخطائهم، ولسـان حالهم يقول بالعصمة لمن قلدوهم.

ولذا ترى الواحد منهم يزعجه، ويكدر خاطره إذا قيل: إن شـيخه وأسـتاذه مخطئ في بعض ما ذهب إليه من قول أو عمل، ويدفعه تعصبه لشـيخه وغلوه في محبتـه له وتأدبه معه

(١) سير أعلام النبلاء: (٣/ ١٥٠).

إلى تصحيح كل ما يقول أو يفعل، مبرراً ذلك بمبررات ساجة متكلفة.

يقول ابن القيم - رحمه الله تعالى - في وصف أهل الطرفين السابقين بعد أن ذكر فضل أئمة الإسلام: (... وأن فضلهم وعلمهم ونصحهم لله ورسوله ﷺ لا يوجب قبول كل ما قالوه. وما وقع في فتاويهم من المسائل التي خفي عليهم ما جاء به الرسول ﷺ فقالوا بمبلغ علمهم - والحق في خلافها - لا يوجب اطراح أقوالهم جملة، وتنقصهم والوقيعة فيهم، فهذان طرفان جائران عن القصد، وقصد السبيل بينهما، فلا نؤثم ولا نعصم، ولا نسلك بهم مسلك الرافضة في علي رضي الله عنه ولا مسلكهم في الشيخين رضي الله عنهما)[1].

وقال رحمه الله تعالى في معرض رده على الهروي رحمه الله تعالى في منازله: (هذا ونحوه من الشطحات التي ترجى مغفرتها لكثرة الحسنات، ويستغرقها كمال الصدق وصحة المعاملة، وقوة الإخلاص، وتجريد التوحيد، ولم تضمن العصمة لبشر بعد رسول الله ﷺ. وهذه الشطحات أوجبت فتنة على طائفتين من الناس:

(١) أعلام الموقعين: (٣/ ٣٥٨).

إحداهما: حُجبت بها عن محاسن هذه الطائفة ولطف نفوسهم، وصدق معاملتهم، فأهدروها لأجل هذه الشطحات، وأنكروها غاية الإنكار. وأساءوا الظن بهم مطلقاً، وهذا عدوان وإسراف، فلو كان كل من أخطأ أو غلط ترك جملة، وأهدرت محاسنه، لفسدت العلوم والصناعات، والحكم، وتعطلت معالمها.

والطائفة الثانية: حجبوا بما رأوه من محاسن القوم، وصفاء قلوبهم، وصحة عزائمهم، وحسن معاملاتهم عن رؤية عيوب شطحاتهم، ونقصانها، فسحبوا عليها ذيل المحاسن، وأجروا عليها حكم القبول والانتصار لها، واستظهروا بها في سلوكهم. وهؤلاء أيضاً معتدون مفرطون.

والطائفة الثالثة: - وهو أهل العدل والإنصاف - الذين أعطوا كل ذي حق حقه، وأنزلوا كل ذي منزلة منزلته، فلم يحكموا للصحيح بحكم السقيم المعلول، ولا للمعلول السقيم بحكم الصحيح، بل قبلوا ما يقبل، وردوا ما يرد)[١].

---

(١) مدارج السالكين: (٢/ ٢٢٠-٢٢٤) باختصار.

الموقف العدل والوسط المتوازن:

(وهـؤلاء هم أهل السرائر الصالحة) وهم الذين ذكرهم ابـن القيـم - رحمـه الله تعالى - في ما سـبق وسـماهم بالطائفة الثالثـة، حيث قـال عنهـم: (وهم أهـل العـدل والإنصاف، الذين أعطوا كل ذي حق حقه، وأنزلوا كل ذي منزلة منزلته، فلـم يحكموا للصحيح بحكم السـقيم المعلول، ولا للمعلول السقيم بحكم الصحيح، بل قبلوا ما يقبل، وردوا ما يرد)[١].

أي أنهـم لم يقعـوا فيـما وقـع فيـه أهـل الغلـو والإفـراط المضخمـين للأخطـاء، المهدريـن لحـق مـن وقـع منـه الخطأ، والمهدرين لحسناتهم، المتهمين لنياتهم، بل حفظوا لهم حقوقهم، ولم ينسـوا لهـم بلاءهـم وجهادهـم وحسـناتهم، ووضعـوا أخطاءهم في حجمها الذي تسـتحقه، ووازنوا بين حسناتهم وسـيئاتهم. وفي المقابـل لم يذهبـوا إلى تقديـس الأشـخاص، وادعـاء العصمـة لهم - سـواء بلسـان المقال أو الحـال - بل نظـروا للمخطئـين بأنهم غير معصومـين، ولم يدفعهم حبهم وأدبهـم مع شـيوخهم إلى تقليدهم في كل مـا يقولونه، أو أن يسحبوا ذيل الحسن على كل ما يفعلونه.

---

(١) المصدر السابق.

نماذج مضيئة من عدل السلف مع مخالفيهم:

النموذج الأول:

عن عبدالرحمن بن شُمَاسَة قال: دخلتُ على عائشة ﵂، فقالت: ممن أنت؟ قلتُ: من أهل مصر. قالت: كيف وجَدْتُم ابن حُديج في غزاتكم هذه؟ قلت: خير أمير، ما يقف لرجل منَّا فرسٌ ولا بعيرٌ إلا أبدلَ مكانه بعيراً، ولا غلامٌ ألا أبدل مكانه غُلاماً، قالت: إنه لا يمنعني قتلُه أخي أن أحدِّثكم ما سمعت من رسول الله ﷺ، إني سمعته يقول: «**اللهم من ولي من أمر أُمتي شيئًا فَرفَقَ بهم فارفُقْ به، ومن شَقَّ عليهم فاشْقُقْ عليه**»[1].

النموذج الثاني:

قال يونس الصدفي: ما رأيت أعقل من الشافعي، ناظرته يوماً في مسألة، ثم افترقنا ولقيني فأخذ بيدي، ثم قال: يا أبا موسى ألا يستقيم أن نكون إخوانًا وإن لم نتفق في مسألة)[2].

---

(١) نزهة الفضلاء: (١/ ٣٢٧)، والحديث رواه مسلم: (١٨٢٨).
(٢) سير أعلام النبلاء: (١٠/ ١٦).

النموذج الثالث:

عـن يونـس بن عبدالأعـلى قال: قـال لي الشـافعي: (يا يونـس إذا بلغك عن صديق لك ما تكرهـه، فإياك أن تبادره العداوة، وقطع الولاية، فتكون ممن أزال يقينه بشـك، ولكن ألقـه وقُلْ لـه: بلغني عنك كـذا وكذا، واحذر أن تسـمي له المبلِّـغ، فإن أنكر ذلـك فقل له: أنت أصـدق وأبر. لا تزيدن على ذلك شـيئًا، وإن اعترف بذلك، فرأيت له في ذلك وجهاً لعـذر فاقبل منه، وإن لم تر ذلك فقل له: ماذا أردت بما بلغني عنـك؟ فإن ذكر مـا له وجه مـن العذر فاقبل منـه، وإن لم تر لذلـك وجهاً لعـذر، وضاق عليك المسـلك، فحينئـذ أثبتها عليه سـيئة، ثم أنت في ذلـك بالخيار، إن شـئت كافأته بمثله من غير زيادة، وإن شئت عفوت عنه، والعفو أقرب للتقوى وأبلـغ في الكرم، لقول الله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشـورى: ٤٠]، فـإن نازعتك نفسـك بالمكافـأة، ففكّر فيما سـبق لـه لديك من الإحسـان، فعدهـا ثم أبـدر له إحسـاناً بهذه السـيئة، ولا تبْخَسـنّ باقي إحسانه السالف بهذه السيئة، فإن ذلك الظلم بعينه. يا يونس

إذا كان لك صديق فشد يديك به، فإن اتخاذ الصديق صعب ومفارقته سهل)[١].

النموذج الرابع:

وقال الذهبي في ترجمته لمحمد بن نصر المروزي: (لو أنَّا كلما أخطأ إمام في اجتهاده في آحاد المسائل خطأً مغفوراً له، قمنا عليه وبدعناه وهجرناه لما سلم معنا لا ابن نصر ولا ابن منده ولا من هو أكبر منهما. والله هو هادي الخلق إلى الحق، وهو أرحم الراحمين، فنعوذ بالله من الهوى والفظاظة)[٢].

النموذج الخامس:

قال الذهبي في ترجمة قتادة - رحمه الله تعالى -: (وهو حجة بالإجماع إذا بين السماع، فإنه مدلس معروف بذلك، وكان يرى القدر نسأل الله العفو، ومع هذا فما توقف أحد في صدقه وعدالته وحفظه، ولعل الله يعذُرُ أمثاله ممن تلبس ببدعة يريد بها تعظيم الباري وتنزيهه، وبذل وسعه، والله

(١) صفة الصفوة: (٢/ ٢٥٢، ٢٥٣).
(٢) نزهة الفضلاء: (٢/ ١١٢٧).

حكم عدل لطيف بعباده، ولا يسأل عما يفعل. ثم إنَّ الكبير من أئمة العلم إذا كَثُرَ صوابُه، وعُلِمَ تحرِّيه للحق، واتسع علمه، وظهر ذكاؤه، وعُرف صلاحُه وورعُه واتباعه، يُغفر له زلله، ولا نضلله ونطرحه، وننسى محاسنه. نعم ولا نقتدي به في بدعته وخطئه، ونرجو له التوبة من ذلك)[١].

النموذج السادس:

رسالة الشيخ حمد بن عتيق إلى صديق حسن خان - رحمهما الله تعالى - وما فيها من العدل والإنصاف والأدب الجم بين أهل العلم - وإن اختلفوا - وهي رسالة طويلة اقتطف منها ما يلي:

(من حمد بن عتيق إلى الإمام المعظم والشريف المقدم المسمى محمد الملقب صديق زاده الله من التحقيق وأجاره في مآله من عذاب الحريق.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد: فالموجب للكتاب إبلاغ السلام والتحفي والإكرام، شيد الله بك قواعد

(١) سير أعلام النبلاء: (٥/ ٢٧١).

الإسلام، ونشر بك السنن والأحكام. اعلم وفقك الله أنه كان يبلغنا أخبار سارة بظهور أخ صادق ذي فهم راسخ وطريقة مستقيمة، يقال له صديق فنفرح بذلك ونسر، لغرابة الزمان وقلة الإخوان وكثرة أهل البدع والأغلال، ثم وصل إلينا كتاب الحطة وتحرير الأحاديث في تلك الفصول، فازددنا فرحاً وحمدنا لربنا العظيم لكون ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس. وكان لي ابن يتشبث بالعلم ويحب الطلب، فجعل يتوق إلى اللحوق بكم والتخرج عليكم والالتقاط من جواهركم، لذهاب العلم في أقطارنا وعموم الجهل وغلبة الأهواء. فبينما نحن كذلك إذ وصل إلينا التفسير بكماله فرأينا أمراً عجيباً ما كنا نظن أن الزمان يسمح بمثله وما قرب منه، لما من التفاسير التي تصل إلينا من التحريف والخروج عن طريقة الاستقامة، وحمل كلام الله على غير مراد الله، وركوب التفاسير في حمله على المذاهب الباطلة، وجعلت السنة كذلك، فلما نظرنا في ذلك التفسير تبين لنا حسن قصد منشيه، وسلامة عقيدته، وتبعده من تعمد مذهب غير ما عليه السلف الكرام. فعلمنا أن ذلك من قبيل قوله ﷻ: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥].

فالحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً طيباً كما يحب ربنا ويرضى، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، فزاد اشتياق التائق وتضاعفت رغبته، ولكن العوائق كثيرة والمثبطات مضاعفة، والله على كل شيء قدير فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وإن شاءه الناس. فمن العوائق تباعد الديار وطول المسافات، فإن مقرنا في فلج اليمامة، ومنها خطر الطريق وكثرة القطاع وتسلط الحرامية في نهب الأموال واستباحة الدماء وإخافة السبيل، ومنها ما في الطريق من أهل البدع والضلال بل وأهل الشرك من رافضي وجهمي إلى معتزلي ونحوهم، وكلهم أعداء قاتلهم الله. ربنا آتنا من لدنك رحمة، وهيئ لنا من أمرنا رشدا. ومع ذلك فنحن نرجو أن يبعث الله لهذا الدين من ينصره، وأن يجعلنا من أهله، وأن يسهل الطريق ويرفع الموانع، ونسأله أن يمن بذلك فهو القادر عليه.

ولما رأينا ما منَّ الله به عليكم من التحقيق وسعة الاطلاع، وعرفنا تمكنكم من الآلات، وكانت نونية ابن القيم المسماة بالكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية بين أيدينا، ولنا

بها عناية ولكن أفهامنا قاصرة وبضاعتنا مزجاة من أبواب العلم جملة، وفيها مواضع محتاجة إلى البيان، ولم يبلغنا أن أحداً تصدى لشرحها، غلب على الظن أنك تقدر على ذلك. فافعل ذلك يكن من مكاسب الأجور، وهي واصلة إليك إن شاء الله، فاجعل قِرَاها شرحها وبيان معناها، وأصلح في النية ذلك تكن حرباً لجميع أهل البدع، فإنها لم تبق طائفة منهم إلا ردت عليها، فهذان مقصدان من بعثها إليك: أحدهما: شرحها، والثاني: الاستعانة بها على الرد على أهل البدع، لأن مثلك يحتاج إلى ذلك، لكونك في زمان الغربة وبلاد الغربة، فإن كنت حريصاً على ذلك فعليك بكتاب العقل والنقل، والتسعينية لشيخ الإسلام ابن تيمية، وكتاب الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة والجيوش الإسلامية لابن القيم، ونحوهن من كتبهما فإن فيها الهدى والشفاء. ولنا مقصد رابع مهم، وهو أن هذا التفسير العظيم وصل إلينا في شعبان سنة سبع وتسعين ومائتين وألف ١٢٩٧ هجرية، فنظرت فيه وفي هذا الشهر وفي شوال، فتجهز الناس للحج ولم أتمكن إلا من بعضه ومع ذلك وقفت فيه على مواضع تحتاج إلى تحقيق، وظننت أن لذلك سببين:

أحدهما: أنه لم يحصل منكم إمعان نظر في هذا الكتاب بعد إتمامه، والغالب على من صنف الكتب كثرة ترداده وإبقائه في يده سنين يبديه ويعيده، ويمحو ويثبت، ويبدل العبارات، حتى يغلب على ظنه الصحة غالباً، ولعل الأصحاب عاجلوك بتلقيه قبل ذلك.

والثاني: أن ظاهر الصنيع أنك أحسنت الظن ببعض المتكلمة، وأخذت من عباراتهم بعضاً بلفظه وبعضاً بمعناه، فدخل عليك شيء من ذلك ولم تمعن النظر فيها، ولهم عبارات مزخرفة فيها الداء العضال وما دخل عليك من ذلك، فنقول: إن شاء الله بحسن القصد واعتماد الحق وتحري الصدق والعدل. وهو قليل بالنسبة إلى ما وقع فيه كثير ممن صنف في التفسير وغيره. وإذا نظر السني المنصف في كثير من التفاسير وشرح الحديث وجد قلّته وما هو أكثر منه، وقد سلكتم في هذا التفسير في مواضع منه مسلك أهل التأويل، مع أنه قد وصل إلينا لكم رسالة في ذم التأويل مختصرة، وهي كافية ومطلعة على أن ما وقع في التفسير صدر من غير تأمل، وأنه من ذلك القليل. وكذلك في التفسير من مخالفة

أهـل التأويـل ما يدل عـلى ذلك. وأنا اجـترأت عليك - وإن كان مثـلي لا ينبغـي له ذلـك - لأنه غلب عـلى ظني إصغاؤك إلى التنبيه، ولأن من أخلاق أئمة الدين قبول التنبيه والمذاكرة، وعدم التكبر وإن كان القائل غير أهل، ولأنه بلغني عن بعض مـن اجتمع بك أنك تحب الاجتماع بأهل العلم، وتحرص على ذلك، وتقبل العلم ولو ممن هو دونك بكثير، فرجوت أن ذلك عنوان توفيق، جعلك الله كذلك وخيراً من ذلك...

فنسأل الله أن يلحقنا بآثار الموحدين، وأن يحشرنا في زمرة أهل السـنة والجماعة بمنّه وكرمـه. وقد اجترأت عليك بمثل هذا الكلام نصحاً لله ورسـوله، رجاء من الله أن ينفع بك في هذا الزمان، الذي ذهب فيه العلم النافع ولم يبق إلا رسومه، وأنـا أنتظـر منك الجـواب ورد ما صـدر مني مـن الخطاب. ثـم إني لمـا رأيـت الترجمة وقد سـمي فيها بعـض مصنفاتك، وكنـت في بلاد قليلـة فيها الكتب، وقد ابتليـت بالدخول في أمـور الناس لأجل ضرورتهـم كما قيل: خلا لك الجو فبيضي واصفري. وألتمس من جنابك تفضل علينا ببلوغ السـؤول من أقضية الرسول، والروضة الندية شرح الدرر البهية، ونيل

المرام شرح آيات الأحكام. فنحن في ضرورة عظيمة إلى هذه كلها، فاجعل من صالح أعمالك معونة إخوانك ومحبيك بها، وابعث بها إلينا مأجوراً إن شاء الله تعالى، وليكن ذلك على يد الأخ أحمد بن عيسى الساكن في مكة المكرمة المشرفة، واكتب لنا تعريفاً بأحوالكم. ولعل أحداً منكم من يتلقى هذا العلم ويعتني به ويحفظه عنك، واحرص على ذلك طمعاً أن يجمع لك شرف الدنيا والآخرة، ونسأل الله أن يهب لك ذلك.

ثم اعلم أني قد بلغت السبعين، وأنا في معترك الأعمار لا آمن هجوم المنية، ولي أولاد ثمانية، منهم ثلاثة يطلبون العلم كبيرهم سعد المذكور أولاً، ويليه عبدالعزيز، وتحته عبداللطيف. ونرجو أنهم أهل الكتب وممن يعتز بها ويحفظها. وبقيتهم صغار منهم من هو في المكتب ومن دعائنا: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]، ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨]، لا تنسنا من صالح دعائك كما هو لك مبذول، والسلام عليكم ورحمة الله

وبركاته، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم)[١] أ.هـ. ملخصاً.

العلامة العاشرة: لصلاح السريرة:

الصدق في الحديث، والوفاء بالعهود، وأداء الأمانة، وتنفيذ الوعد، وتقوى الله ﷻ في الخصومة، فكل هذه الخصال تدل على صلاح في السريرة، لأن أضداد هذه الصفات إنما هي من خصال المنافقين، الذين فسدت سرائرهم، كما أخبر بذلك الرسول ﷺ بقوله: «**أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خلة منهن كان فيه خلة من نفاق: إذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر**»[٢]، ويدخل في ذلك ذو الوجهين، الذي يلقى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه.

ويقول ابن رجب رحمه الله تعالى: (النفاق الأصغر كله راجع إلى اختلاف السريرة والعلانية، كما قال الحسن.

(١) رسالة من الشيخ العتيق للشيخ صديق حسن خان، ينبهه فيها على أخطاء وقعت له في تفسيره.

(٢) البخاري: (٣٤)، ومسلم (٥٨) واللفظ له.

وقال الحسن أيضاً: (من النفاق اختلاف القلب واللسان، واختلاف السر والعلانية، واختلاف الدخول والخروج)(١).

العلامة الحادية عشرة:

صدق التوكل على الله ﷻ، وحسن الظن به، والتبرؤ من الحول والقوة، مع فعل الأسباب المأمور بها شرعاً طاعة لله ﷻ دون التعلق بها، وإنما التعلق بخالقها ﷻ ومسبِّبها، وهذا بدوره يضفي على صاحب السريرة الصالحة الاطمئنان، وارتفاع خوف المخلوق من قلبه، لأنه يتمثل قول النبي الصالح هود عليه الصلاة والسلام: ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود: ٥٦].

العلامة الثانية عشرة:

كثرة ذكر الله ﷻ واستغفاره، وهذا من علامة محبة العبد لربه ﷻ، لأن من علامة صدق المحبة كثرة الذكر للمحبوب، ودوام ورود ذكره على القلب.

(١) جامع العلوم والحكم: (١/ ٤٣٣).

فهو علامة وسبب لصلاح السريرة فبه تصلح السريرة، وتزكو القلوب، وهو علامة على صلاح القلوب والسرائر فهو إذن علامة وسبب.

• العلامة الثالثة عشرة: الدعوة إلى الله ﷻ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

إن من علامة صلاح القلب: الصدق في محبة الله ﷻ ومحبة دينه، وهذا يقتضي أن يكون أمر هذا الدين هو شغل المؤمن الشاغل، حيث لا يقر له قرار ولا يهدأ له بال، وهو يرى دين الله ﷻ ينتهك ويقصى من الحياة، ومن ثم يرى الفساد المستطير يدب في أديان الناس ودمائهم وأعراضهم وعقولهم وأموالهم، إن المؤمن الصادق الإيمان صاحب السريرة الصالحة لا يُقدِّم على هذا الهم الأكبر أي اهتمام من أمور الدنيا الفانية.

فمن يرى محارم الله تنتهك، وحدوده تضاع، ودينه يترك، وسنة رسوله ﷺ يرغب عنها، وهو بارد القلب، ساكت اللسان، شيطان أخرس، كما أن المتكلم بالباطل شيطان ناطق،

وهـل بلية الديـن إلا من هؤلاء الذين إذا سـلمت لهم مآكلهم ورياساتهم فلا مبالاة بما جرى على الدين؟ وخيارهم المتحزن المتلمـظ، ولو نوزع في بعض مـا فيه غضاضة عليه في جاهه أو ماله بذل وتبذل وجد واجتهد، واستعمل مراتب الإنكار الثلاثة بحسب وسـعه، وهؤلاء مع سقوطهم من عين الله ومقت الله لهم قد بلوا في الدنيا بأعظم بلية تكون وهم لا يشعرون، وهو موت القلوب، فإن القلب كلما كانت حياته أتم كان غضبه لله ولرسوله أقوى، وانتصاره للدين أكمل)[١] أ.هـ.

والحاصل أنه كلما كان العبد صادقاً في إيمانه موقناً بوعد ربـه صالحـاً في سريرتـه كان مندفعـاً مضحيـاً صابراً محتسـباً في سـبيل الله ﷻ، يعظـم حرمات الله، ويغار عـلى محارم الله، وينصح لعباد الله ﷻ.

---

(١) أعلام الموقعين: (٢/ ٤٧٦).

الفصل الرابع

من ثمرات السريرة الصالحة

للسريرة الصالحة ثمرات طيبة وعواقب حميدة، يغتبط ويسر بها صاحبها في الدنيا والآخرة ومن أهمها ما يلي:

الثمرة الأولى:

محبة الله عز وجل ومعيته لصاحب السريرة الصالحة، وولايته له.

مر بنا قوله ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم**» وأشار بأصابعه إلى صدره[(١)]، وكذلك قوله ﷺ: «**من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها...**»[(٢)] الحديث.

---

(١) مسلم: (٢٥٦٤).

(٢) البخاري: (٦٥٠٢).

ومعلوم أن أول ما يدخل في الفرائض والنوافل فرائض القلب ونوافله. وجاء عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«أحب العباد إلى الله تعالى الاتقياء الأصفياء، الذين إذا غابوا لم يفتقدوا، وإذا شهدوا لم يعرفوا، أولئك هم أئمة الهدى ومصابيح العلم»**[1].

وإذا أحب الله ﷻ عبداً تواردت عليه أسباب التوفيق والتيسير والهناء في الدنيا والآخرة، وأثمرت له هذه المحبة ثمرات يانعة في دينه ودنياه وهي ما سيرد ذكره في الثمرات الآتية.

الثمرة الثانية:

مضاعفة الحسنات وقبولها عند الله ﷻ، وغفران الذنوب، ومحو السيئات:

فالله ﷻ لا يتقبل إلا من المتقين، والمتقون هم الذين أصلحوا ظواهرهم وبواطنهم، فجاءت على ما يحبه الله ويرضاه. والعمل الصالح يكون له من الفضل والقبول عند الله ﷻ بقدر ما يقوم بقلب صاحبه من اليقين والمحبة

(١) مستدرك الحاكم، وقال صحيح الإسناد: (٥١٨٠).

والإخـلاص والخوف والرجاء، وغيرها مـن أعمال القلوب والسرائـر. قال الله تعالى: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾[الحج: ٣٧]، وتـرى الرجلـين يدخلان في عبادة من العبادات: كالصلاة والصيام والصدقة والحـج والدعـوة والجهاد، ويكون بينهـما في الثواب والأجر كما بين السـماء والأرض، وذلك حسـب ما قام في قلبيهما من العبادات الباطنة.

وفي ذلك يقول شـيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: (فالمحـو والتكفـير يقـع بما يُتقبـل من الأعـمال. وأكثـر الناس يقصِّرون في الحسنات، حتى في نفس صلاتهم. فالسعيد منهم مـن يُكتب لـه نصفها، وهم يفعلون السـيئات كثـيراً. فلهذا يُكفَّـر بـما يُقبـل من الصلـوات الخمـس شيء،وبـما يُقبل من الجمعة شيء، وبما يُقبل من صيام رمضان شيء آخر. وكذلك سائر الأعمال، وليس كل حسنة تمحو كل سيئة، بل المحو يكون للصغائر تارة، ويكون للكبائر تارة، باعتبار الموازنة.

والنـوع الواحد من العمـل قد يفعله الإنسـان على وجه يكمل فيـه إخلاصه وعبوديته لله، فيغفر الله له به كبائر. كما في

الترمذي وابن ماجة وغيرهما عن عبدالله بن عمرو بن العاص عـن النبـي ﷺ أنه قال: «**يُصـاح برجل من أمتي يـوم القيامة على رؤوس الخلائق، فيُنشر عليه تسـعة وتسعون سجلاً، كل سجلٍ منها مدّ البصر. فيقال: هل تنكر من هذا شيئاً؟ فيقول: لا يا رب. فيقول: لا ظلم عليك. فتخرج له بطاقة قدر الكف، فيها شـهادة أن لا إله إلا الله، فيقول: أين تقع هذه البطاقة مع هذه السـجلات؟ فتوضع هذه البطاقة في كفة، والسجلات في كفة، فثقلت البطاقة وطاشت السجلات**»[١].

فهـذه حال مـن قالها بإخـلاص وصدق، كـما قالها هذا الشـخص. وإلا فأهل الكبائر الذين دخلوا النار كلهم كانوا يقولـون: لا إلـه إلا الله، ولم يترجح قولهم على سـيئاتهم، كما ترجّح قول صاحب البطاقة.

وفي لفظ في الصحيحين: «**أن امرأة بغيًا رأت كلبًا في يوم حار يطيف ببئر قد أدلع لسـانه من العطش فنزعت له موقها**

(١) الحديـث مـع اختـلاف في الألفاظ عن عبدالله بن عمرو بن العاص في سـنن الترمذي: (٤/ ١٢٣، ١٢٤)، وقال الترمذي: حسـن غريب، وقال الشـيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع: (٨٠٩٥).

فسقته به فغفر لها»(١) وفي لفظ في الصحيحين أنها كانت بغيًا من بغايا بني إسرائيل، وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **«بينما رجل يمشي في طريق وجد غصن شوكٍ على الطريق فأخَّره، فشكر الله له، فغفر له»**(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«دخلت امرأة النار في هرّة، ربطتها: لا هي أطعمتها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض، حتى ماتت»**(٣).

فهذه سقت الكلب بإيمان خالص كان في قلبها فغفر لها، وإلا فليس كلّ بغيٌّ سقت كلباً يغفر لها. وكذلك هذا الذي نحّى غصن الشوك عن الطريق، فعله إذ ذاك بإيمان خالص، وإخلاص قائم بقلبه، فغُفر له بذلك. فإن الأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص، وإن الرجلين ليكون مقامهما في الصف واحداً، وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض. وليس كل من نحَّى غصن شوكٍ عن الطريق يغفر له.

(١) البخاري (٣٢٨٠). واللفظ لمسلم (٢٢٤٥). والموق: هو الخف فارسي معرب.
(٢) البخاري (٦٥٢)، ومسلم: (١٩١٤).
(٣) البخاري: (٣٣١٨)، ومسلم: (٢٢٤٢).

قال الله تعالى: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [الحج: ٣٧]. فالناس يشتركون في الهدايا والضحايا، والله لا يناله الدم المهراق ولا اللحم المأكول، والتصدُّق به، لكن يناله تقوى القلوب.

وفي الأثر: إن الرجلين ليكون مقامهما في الصف واحداً، وبين صلاتيهما كما بين المشرق والمغرب.

فإذا عُرف أن الأعمال الظاهرة يعظم قدرها ويصغر قدرها بما في القلوب، وما في القلوب يتفاضل، لا يَعْرف مقادير ما في القلوب من الإيمان إلا الله. عرف الإنسان أن ما قاله الرسول كله حق، ولم يضرب بعضه ببعض.

وقد قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

وفي الترمذي وغيره عن عائشة ﷺ قالت: يا رسول الله: أهو الرجل يزني ويسرق ويشرب الخمر ويخاف أن يعاقب؟ قال: **«لا يا ابنة الصدِّيق، بل هو الرجل يصوم ويصلِّي ويتصدّق، ويخاف أن لا يقبل منه»**(١).

---

(١) روي هذا الحديث بألفاظ متقاربة في سنن ابن ماجة: (٢/ ١٤٠٤)، و في سنن الترمذي: (٢٤ باب ومن سورة المؤمنون).

وقـد ثبـت في الصحيحـين عن النبـي ﷺ أنه قـال: **«لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نصيفه»**(١).

وذلك أن الإيمان الذي كان في قلوبهم حين الإنفاق في أول الإسـلام وقلة أهله، وكثرة الصوارف عنه، وضعف الدواعي إليه لا يمكن أحداً أن يحصل له مثله ممن بعدهم. وهذا يعرف بعضـه من ذاق الأمور، وعرف المحن والابتلاء الذي يحصل للناس، وما يحصل للقلوب من الأحوال المختلفة.

وهـذا مما يُعرف به أن أبا بكـر رضي الله عنه لن يكون أحد مثله، فإن اليقين والإيمان الذي كان في قلبه لا يساويه فيه أحد. قال أبو بكر بن عيَّاش: ما سبقهم أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام، ولكن بشيء وقر في قلبه.

وهكذا سـائر الصحابـة حصل لهم بصحبتهم للرسـول، مؤمنين به مجاهدين معه، إيمان ويقين لم يشركهم فيه من بعدهم.

والمقصود أن فضل الأعمال وثوابها ليس لمجرد صورها الظاهرة، بل لحقائقها التي في القلوب. والناس يتفاضلون في

(١) البخاري: (٣٦٧٣)، ومسلم: (٢٥٤١).

ذلك تفاضلاً عظيماً، وهذا مما يحتج به من رجّح كل واحد من الصحابة على كل واحد ممن بعدهم، فإن العلماء متفقون على أن جملة الصحابة أفضل من جملة التابعين، لكن هل يفضّل كل واحد من الصحابة على كل واحد ممن بعدهم، ويفضل معاوية على عمر بن العزيز؟

ذكر القاضي عياض وغيره في ذلك قولين، وأن الأكثرين يفضّلون كل واحد من الصحابة، وهذا مأثور عن ابن المبارك وأحمد بن حنبل وغيرهما)[(١)]. أ.هـ.

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: (قال أبو الدرداء: يا حبذا نوم الأكياس وفطرهم، كيف يغبنون قيام الحمقى وصومهم، والذرة من صاحب التقوى أفضل من أمثال الجبال عبادة من المغترين. وهذا من جواهر الكلام، وأدلة على كمال فقه الصحابة، وتقدمهم على من بعدهم في كل خير ﷺ، فاعلم أن العبد إنما يقطع منازل السير إلى الله بقلبه وهمته لا ببدنه، والتقوى في الحقيقة تقوى القلوب لا تقوى الجوارح، قال الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ [الحج: ٣٢]، وقال ﷻ: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن

(١) منهاج السنة: (٦/ ٢١٨)، وما بعده باختصار.

﴿يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]، وقال النبي ﷺ: «**التقوى هاهنا**»(١)، وأشار إلى صدره.

فالكيس يقطع المسافة بصحة العزيمة، وعلو الهمة، وتجريد القصد، وصحة النية مع العمل القليل أضعاف أضعاف ما يقطعه الفارغ من ذلك مع التعب الكثير والسفر الشاق)(٢).

وقال في موطن آخر، وهو يعدد فضائل العلم والعلماء: (الوجه الثاني والسبعون: أن صاحب العلم أقل تعباً وعملاً وأكثر أجراً، واعتبر هذا بالشاهد، فإن الصُّنَّاع والأجراء يعانون الأعمال الشاقة بأنفسهم، والأستاذ المعلم يجلس يأمرهم وينهاهم، ويريهم كيفية العمل، ويأخذ أضعاف ما يأخذونه. وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى، حيث قال: «**أفضل الأعمال الإيمان بالله وحده، ثم الجهاد**»(٣)، فالجهاد فيه بذل النفس وغاية المشقة، والإيمان علم القلب وعمله

(١) مسلم: (٢٥٦٤).
(٢) الفوائد: (ص ١٤١).
(٣) صححه الألباني في صحيح الجامع: (١٠٩١)، وأصله عند البخاري: (٢٦)، ومسلم: (٨٣).

وتصديقه وهو أفضل الأعمال، مع أن مشقة الجهاد فوق مشقته بأضعاف مضاعفة، وهذا لأن العلم يعرف مقادير الأعمال ومراتبها، وفاضلها من مفضولها، وراجحها من مرجوحها، فصاحبه لا يختار لنفسه إلا أفضل الأعمال.

والعامل بلا علم يظن أن الفضيلة في كثرة المشقة فهو يتحمل المشاق وإن كان ما يعانيه مفضولاً، ورب عمل فاضل والمفضول أكثر مشقة منه، واعتبر هذا بحال الصديق فإنه أفضل الأمة. ومعلوم أن فيهم من هو أكثر عملاً وحجًّا وصوماً وصلاة وقراءة منه. قال أبو بكر بن عياش: ما سبقكم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة، ولكن بشيء وقر في قلبه. وهذا موضوع المثل المشهور.

من لي بمثل سيرك المدلل   تمشي رويداً وتجي في الأول[١]

وروى صاحب الحلية الحافظ أبو نعيم بسنده قال: (حدثنا سليمان بن أحمد ثنا عبيد بن محمد الكشوري ثنا همام بن سلمة ابن عقبة قال ثنا غوث بن جابر قال ثنا عقيل بن معقل بن منبه. قال سمعت عمي وهب بن منبه يقول: يا بني أخلص

(١) مفتاح دار السعادة: (١/ ١٣٣، ١٣٤).

طاعة الله بسريـرة ناصحة يصدق الله فيها فعلك في العلانية، فإن من فعل خيراً ثم أسره إلى الله فقد أصاب موضعه وأبلغه قـراره، وإن مـن أسر عمـلاً صالحاً لم يطلع عليـه أحد إلا الله فقـد اطلع عليه من هو حسـبه، واسـتودعه حفيظـاً لا يضيع أجره، فلا تخافن على عمل صالح أسررته إلى الله ﷻ ضياعاً، ولا تخافـن من ظلمه ولا هضمه، ولا تظنـن أن العلانية هي أنجح من السريرة، فإن مثل العلانية مع السريرة، كمثل ورق الشجر مع عرقها، العلانية ورقها، والسريرة عرقها، إن نخر العرق هلكت الشـجرة كلها ورقهـا وعودها، وإن صلحت صلحت الشـجرة كلها ثمرها وورقهـا، فلا يزال ما ظهر من الشجرة في خير ما كان عرقها مستخفياً لا يُرى منه شيء. كذلك الدين لا يزال صالحاً ما كان له سريرة صالحة، يصدق الله بها علانيته، فإن العلانية تنفع مع السريرة الصالحة كما ينفع عرق الشـجرة صلاح فرعها، وإن كان حياتها من قبل عرقها، فإن فرعهـا زينتها وجمالها، وإن كانت السريـرة هي ملاك الدين، فـإن العلانية معهـا تزين الدين وتجملـه، إذا عملها مؤمن لا يريد بها إلا رضاء ربه ﷻ)[١].

---

(١) حلية الأولياء: (٤/ ٧٠).

الثمرة الثالثة:

إلقـاء الله ﷻ المحبة لصالح السريرة بين الناس، ووضع القبول له عندهم:

فقـد جـاء في الحديـث الصحيـح عن أبي هريـرة رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ قـال: «**إذا أحـب الله العبد نـادى جبريل: إن الله يحب فلاناً فأحببه. فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبوه. فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض**»(١)، وهذه المحبة إنما نشأت من علم الله ﷻ بصلاح سريرة العبد وسلامة قلبه ومحبة الله ﷻ له.

يقـول الإمام ابـن الجـوزي رحمـه الله تعـالى: (إن للخلوة تأثـيرات تبـين في الجلوة، كم مـن مؤمن بـالله ﷻ يحترمه عند الخلوات فيترك ما يشـتهى حذراً مـن عقابه، أو رجاء لثوابه، أو إجلالا له، فيكون بذلك الفعل كأنه طرح عوداً هنديًا على مجمر، فيفوح طيبه، فيستنشقه الخلائق، ولا يدرون: أين هو.

وعـلى قدر المجاهـدة في ترك مـا يهوى تقـوى محبته، أو على مقـدار زيادة دفع ذلـك المحبوب المـتروك يزيد الطيب،

(١) البخاري: (٣٢٠٩)، ومسلم: (٢٦٣٧).

ويتفاوت تفاوت العود. فترى عيون الخلق تعظم هذا الشخص، وألسنتهم تمدحه، ولا يعرفون لم. ولا يقدرون على وصفه لبعدهم عن حقيقة معرفته.

وقد تمتد هذه الأرابيح بعد الموت على قدرها، فمنهم من يذكر بالخير مدة مديدة، ثم ينسى. ومنهم من يُذكر مئة سنة، ثم يخفى ذكره وقبره. ومنهم أعلام يبقى ذكرهم أبداً. وعلى عكس هذا من هاب الخلق، ولم يحترم خلوته بالحق. فإنه على قدر مبارزته بالذنوب، وعلى مقادير تلك الذنوب، يفوح منه ريح الكراهة، فتمقته القلوب. فإن قلَّ مقدار ما جنى قلَّ ذكر الألسن له بالخير، وبقي مجرد تعظيمه.

وإن كثر كان قصارى الأمر سكوت الناس عنه، لا يمدحونه ولا يذمونه.

ورب خال بذنب كان سبب وقوعه في هوة شقوة في عيش الدنيا والآخرة، وكأنه قيل له: إبق بما آثرت. فيبقى أبدا في التخبيط.

فانظروا إخواني إلى المعاصي، أثرت وعثرت. قال أبو الدرداء رضي الله عنه: إن العبد ليخلو بمعصية الله تعالى، فيُلقي الله

بغضه في قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر. فتلمحوا ما سطرته، واعرفوا ما ذكرته. ولا تهملوا خلواتكم ولا سرائركم، فإن الأعمال بالنية، والجزاء على مقدار الإخلاص)[١].

ويقول في موطن آخر: (والله لقد رأيت من يكثر الصلاة والصوم والصمت، ويتخشع في نفسه ولباسه، والقلوب تنبو عنه، وقدرُه في النفوس ليس بذاك.

ورأيت من يلبس فاخر الثياب، وليس له كبير نفل ولا تخشع، والقلوب تتهافت على محبته، فتدبرت السبب فوجدته السريرة، كما روي عن مالك: أنه لم يكن له كبير عمل من صلاة وصوم، وإنما كانت له سريرة.

فمن أصلح سريرته فاح عبير فضله، وعبقت القلوب بنشر طيبه.

فالله الله في السرائر، فإنه ما ينفع مع فسادها صلاح ظاهر)[٢].

ويقول في موطن ثالث: (نظرت في الأدلة على الحق ﷻ فوجدتها أكثر من الرمل، ورأيت من أعجبها أن الإنسان

(١) صيد الخاطر: (١٧٠، ١٧١).
(٢) صيد الخاطر: (ص ٢٠٧).

قـد يُخْفِي مـا لا يرضاه الله ﷻ، فيُظهـره الله ﷻ عليه ولو بعد حين، ويُنْطِق الألسنة به، وإن لم يشاهده الناس.

وربما أوقع صاحبه في آفة يفضحه بها بين الخلق، فيكون جواباً لـكل ما أخفى مـن الذنوب، وذلك ليعلـم الناس أن هنالـك مـن يجازي عـلى الزَّلَـل، ولا ينفع من قـدره وقدرته حجاب ولا استتار، ولا يضاع لديه عمل.

وكذلك يُخْفي الإنسان الطاعة فتظهر عليه، ويتحدث الناس بهـا وبأكثر منها، حتى إنهم لا يعرفون له ذنباً، ولا يذكرونه إلاَّ بالمحاسن، ليعلم أن هنالك ربًّا لاَ يُضيعُ عَمَلَ عَامِلٍ.

وإن قلوب الناس لتعرف حال الشخص وتحبه، أو تأباه وتذمـه، أو تمدحـه وفـق ما يتحقـق بينه وبين الله تعـالى، فإنه يكفيه كل هم، ويدفع عنه كل شر.

ومـا أصلح عبد ما بينه وبين الخلـق دون أن ينظر الحق، إلاَّ انْعَكَسَ مَقصُودُهُ، وعاد حامِدُه ذامًّا)[١]. أ.هـ

فهـذا مـن أعظـم ثمـرات صـلاح السريـرة، لأن الكلمة الصادقـة عندمـا تنبع من قلـب صالح طيب تفعـل فعلها في

---

(١) صيد الخاطر: (ص٩٨).

القلـوب، ويكتـب الله ﷻ لهـا القبول عند النـاس، وهذا أمر مشاهد.

وفي ذلك يقول سـيد قطب رحمـه الله تعالى: (إن الكلمة لتنبعث ميتة، وتصل هامدة، مهما تكن طنانة رنانة متحمسة، إذا هي لم تنبعث من قلب يؤمن بها. ولن يؤمن إنسان بما يقول حقًا إلا أن يستحيل هو ترجمة حية لما يقول، وتجسيماً واقعاً لما ينطق.. عندئذ يؤمن الناس، ويثق الناس، ولو لم يكن في تلك الكلمة طنين ولا بريق.. إنها حينئذ تسـتمد قوتها من واقعها لا من رنينها، وتسـتمد جمالها من صدقها لا من بريقها.. إنها تستحيل يومئذ دفعة واحدة، لأنها منبثقة من حياة)[١].

وذكر صاحب الحلية عن مالك بن دينار قوله: (الصدق والكذب يعتركان، حتى يخرج أحدهما صاحبه، وإن الصدق يبـدو في القلـب ضعيفـاً كما يبدو نبـات النخلة، يبـدو غصناً واحـداً، فإذا شـقها الصبـي ذهـب أصلهـا، وإن أكلتها عنز ذهـب أصلها. فتسـقى فتنتشر، وتسـقى فتنتـشر حتى يكون لهـا أصل أصيل يُوطأ، وظل يُسـتظل به، وثمـرة يؤكل منها. كذلـك الصّـدق يبـدو في القلـب ضعيفـاً، فيتفقـده صاحبه

(١) في ظلال القرآن، الآية (٤٤) سورة البقرة.

ويزيـده الله تعـالى، ويتفقده صاحبه، فيزيـده الله، حتى يجعله الله بركة على نفسه، ويكون كلامه دواءً للخاطئين.

ثـم قـال مالـك: أمـا رأيتموهم؟ ثـم يرجع إلى نفسـه، فيقـول: بـلى، والله لقـد رأيناهم: الحسـن البصري، وسـعيد ابن جبير وأشـباههم، الرجل منهم يحيي الله بكلامه الفئام - الجماعات- من الناس)[١].

وذكر الذهبي في ترجمته لمحمد بن واسع رحمه الله تعالى، فقـال: (روي أن قاصًّـا كان بقـرب محمـد بن واسـع، فقال: مـا لي أرى القلوب لا تخشـع، والعيـون لا تدمع، والجلود لا تقشعر؟ فقال محمد: يا فلان ما أرى القوم أتوا إلا من قبلك، إن الذكر إذا خرج من القلب وقع على القلب)[٢].

الثمرة الرابعة:

حسن الخاتمة نسأل الله ﷻ حسنها:

وهـذا مـن أعظـم ثـمار السريـرة الصالحـة، ومـا أقض مضاجع السـلف، وأزعج قلوبهم مثـل الخاتمة، والخوف من

(١) حلية الأولياء: (٢/ ٣٥٩).
(٢) السير للذهبي: (٦/ ١٢٢).

سـوئها. ولكـن الله ﷻ برحمتـه ولطفـه وعدله وحمـده لا يختم لصاحـب السريرة الصالحة بسـوء أبدا، وإنـما يكون ذلك لمن فسـدت سريرته، وباغته الموت قبل إصـلاح الطوية، التي لا يعلمها إلا الله ﷻ، وفي ذلك يقول الإمام عبدالحق الإشـبيلي رحمه الله تعالى: (واعلم أن سوء الخاتمة أعاذنا الله منها لا تكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه، ما سُمِعَ بهذا قط، ولا عُلِمَ به والحمد لله، وإنما يكون ذلك لمن كان له فساد في العقد، وإصرار على الكبائر، وإقدام على العظائم، وربما غلب ذلك عليه حتى ينزل بـه الموت قبل التوبـة، ويثب عليه قبـل الإنابة، ويأخذه قبـل إصـلاح الطوية فيصطلمه الشـيطان عند تلـك الصدمة ويختطفه عند تلك الدهشة، والعياذ بالله ثم العياذ بالله)[١].

ويقول الإمام ابن رجب رحمه الله تعالى: (إن خاتمة السوء تكون بسـبب دسيسة باطنة للعبد، لا يطلع عليها الناس: إما مـن جهـة عمل سيء ونحـو ذلك، فتلك الخصلـة توجب له سـوء الخاتمة عند الموت، وكذلك قد يعمل الرجل عمل أهل النـار، وفي باطنه خصلة خفية من خصال الخير، فتغلب عليه تلك الخصلة في آخر عمره، فتوجب له حسن الخاتمة)[٢].

(١) العاقبة في ذكر الموت: (١/ ١٣٣).
(٢) جامع العلوم والحكم: (١/ ٥٧).

وعلـق الإمام ابن حجر رحمه الله تعـالى على ما ترجم له البخـاري بقوله (بـاب الأعـمال بالخواتيم) فقـال: (ذكر فيه حديث سـهل بن سـعد في قصة الذي قتل نفسـه، وفي آخره: وإنما الأعمال بالخواتيم....

وقـال ابن بطال: في تغييب خاتمة العمل عن العبد حكمة بالغة وتدبير لطيف، لأنه لو علم وكان ناجياً أُعجب وكسـل، وإن كان هالـكاً ازداد عتـواً، فحجب ذلـك ليكون بين الخوف والرجـاء، وقـد روى الطـبري عن حفص بن حميـد قال: قلت لابـن المبارك: رأيت رجلاً قتل رجلاً ظلـماً، فقلت في نفسي أنا أفضل من هذا. فقال: أَمْنك على نفسـك أشـد من ذنبـه. قـال الطبري: لأنه لا يدري ما يؤول إليه الأمر، لعل القاتل أن يتوب، فيقبل الله توبته، ولعل الذي أنكر عليه يختم له بخاتمة السوء)[١].

الثمرة الخامسة:

تفريج الكروب وتنفيس الشدائد

قال الله ﷻ بعد أن ذكر استجابته ﷻ لأنبيائه ودعواتهـم فـي تفريـج الكـروب: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي

(١) فتح الباري: (١١/ ٤٠١) حديث: (٦٤٩٣).

ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

فمن كانت له سريرة صالحة في السراء والضراء نفَّس الله كربه، وفرَّج الله همَّه، ورزقه من حيث لا يحتسب، قال الله ﷻ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، وقال ﷻ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤]، ولقد نجَّى الله ﷻ أنبياءه من الكروب، التي نزلت بهم بصلاح سرائرهم وسلامة قلوبهم من الشرك والمعارضات، وامتلائها بالتوحيد والتقوى والصبر واليقين، كما حصل لنوح عليه السلام وقومه الموحدين بنجاتهم من الطوفان، ونجاة إبراهيم عليه السلام من النار، وفلق البحر لموسى عليه السلام وقومه، ونجاتهم من فرعون وقومه، ونجاة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من مشركي قريش، ومن كثير من الكروب والشدائد التي مرت به عليه الصلاة والسلام، ونجاة يوسف عليه السلام من ضيق الجب والسجن بصبره وتقواه: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]، ونجاة أصحاب الغار الثلاثة وانفراج الصخرة عنهم، بفضل إخلاصهم وصلاح سرائرهم والأخبار في ذلك كثيرة.

الثمرة السادسة:

الراحة ونزول الطمأنينة والسكينة في قلب من صلحت سريرته، وثباته أمام فتن الشبهات والشهوات وابتلاءات الخير والشر، وهداية الله ﷻ له إلى الحق والتوفيق إلى الصواب عندما تحتار العقول والأفهام. قال الله ﷻ عن نبيه محمد ﷺ وهو في الغار: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٩].

وقال عن نبيه ﷺ وأصحابه الكرام: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٦].

وقال عنهم أيضاً: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

وكلما اتقى العبد ربه وصلحت سريرته كان أقرب للحق وأسعد الناس باتباعه، قال الله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [الأنفال: ٢٩].

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: (صاحب الرضى في راحة ولذة وسرور، كما في حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إن الله بعدله وقسطه جعل الروح والفرح في اليقين والرضى، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط**»[(١)])[(٢)].

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: (فالسكينة فعيلة من السكون، وهي طمأنينة القلب واستقراره، وأصلها في القلب، ويظهر أثرها على الجوارح، وهي عامة وخاصة.

فسكينة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أخص مراتبها وأعلى أقسامها، كالسكينة التي حصلت لإبراهيم الخليل وقد ألقي في المنجنيق مسافراً إلى ما أضرَم له أعداء الله من النار، فلله تلك السكينة التي كانت في قلبه حين ذلك

---

(١) رواه الطبراني بسند ضعيف: (١٠/ ٢١٥)، والصحيح وقفه على ابن مسعود رضي الله عنه.
(٢) مدارج السالكين: (٢/ ١٤٥).

السفر! وكذلك السكينة التي حصلت لموسى وقد غَشِيه فرعون وجنوده من ورائهم والبحر أمامهم، وقد استغاث بنو إسرائيل: يا موسى إلى أين تذهب بنا؟ هذا البحر أمامنا وهذا فرعون خلفنا! وكذلك السكينة التي حصلت له وقت تكليم الله له نداء ونجاء كلاماً حقيقة سمعه حقيقة بأذنه، وكذلك السكينة التي حصلت له وقد رأى العصا ثعباناً مبيناً، وكذلك السكينة التي نزلت عليه وقد رأى حبال القوم وعِصيَّهم كأنها تسعى فأوجس في نفسه خيفة.

وكذلك السكينة التي حصلت لنبينا ﷺ وقد أشرف عليه وعلى صاحبه عدوهما وهما في الغار، فلو نظر أحدهم تحت قدميه لرآهما، وكذلك السكينة التي نزلت عليه في مواقفه العظيمة، وأعداء الله قد أحاطوا به كيوم بدر ويوم حُنَيْن ويوم الخندق وغيره.

فهذه السكينة أمر فوق عقول البشر، وهي من أعظم معجزاته عند أرباب البصائر، فإن الكذَّاب - ولا سيما على الله - أقلق ما يكون، وأخوف ما يكون وأشده اضطراباً في مثل هذه المواطن، فلو لم يكن للرسل صلوات الله وسلامه عليهم من الآيات إلا هذه وحدها لكفتهم.

وأما الخاصة فتكون لأتباع الرسل بحسب متابعتهم، وهي سكينة الإيمان. وهي سكينة تسكن القلوب عن الريب والشك... والمقصود أن العبد محتاج إلى السكينة عند الوساوس المعترضة في أصل الإيمان، ليثبت قلبه ولا يزيغ، وعند الوساوس والخطرات القادحة في أعمال الإيمان، لئلا تقوى وتصير هموماً وغموماً وإرادات ينقص بها إيمانه، وعند أسباب المخاوف على اختلافها، ليثبت قلبه ويسكن جأشه، وعند أسباب الفرح، لئلا يطمح به مركبه، فيجاوز الحد الذي يعبر فينقلب ترحاً وحزناً، وكم ممن أنعم الله عليه بما يفرحه فجمح به مركب الفرح وتجاوز الحد فانقلب ترحاً عاجلاً»[1].

الثمرة السابعة:

الهداية للحق والسداد في المواقف:

صاحب السريرة الصالحة من أولياء الله ﷻ وأحبائه. ومن كان كذلك فالله ﷻ معه يسدده ويوفقه ويهديه للحق عند اختلاف الناس فيه، قال الله ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

(١) أعلام الموقعين: (٢/ ٢٠٢) باختصار.

ويقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [يونس: ٩].

يقول السعدي رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية: (أي جمعوا بين الإيمان والقيام بموجبه ومقتضاه من الأعمال الصالحة المشتملة على أعمال القلوب وأعمال الجوارح، على وجه الإخلاص والمتابعة، (يهديهم ربهم بإيمانهم) أي بسبب ما معهم من الإيمان يثيبهم الله أعظم الثواب، وهو الهداية فيعلمهم ما ينفعهم، ويمن عليهم بالأعمال الناشئة عن الهداية، ويهديهم للنظر في آياته، ويهديهم في هذه الدار إلى الصراط المستقيم، وفي دار الجزاء إلى الصراط الموصل إلى جنات النعيم)[١].

ولا تظهر الحاجة إلى هذه الثمرة من ثمار السريرة الصالحة كما تظهر أيام النوازل والفتن، وذلك حينما تختلف الآراء والمواقف، ويلتبس الحق بالباطل، وتتعارض المصالح والمفاسد فيما بينها. فيوفق الله ﷻ صالحي السريرة من عباده لما اختلف فيه من الحق بإذنه ﷻ.

---

(١) تفسير السعدي عند الآية (٩) من سورة يونس.

الفصل الخامس

من أسباب صلاح السريرة

إن الله ﷻ بفضله ورحمته إذا علم من عبده الصدق في طلبه وحرصه على إصلاح سريرته وتنقيتها من الشوائب، وفَّقه ﷻ إلى الوسائل التي تصلح بها القلوب والسرائر، وأعانه على الأخذ بها، ومن أهم هذه الوسائل ما يلي:

الوسيلة الأولى:

دعاء الله ﷻ والتضرع بين يديه في أوقات الإجابة لإصلاح السريرة وتنقية القلب من مفسداته، وهذه الوسيلة من أعظم وسائل إصلاح السرائر، حيث لا يملك القلوب وتثبيتها وإصلاح فسادها إلا الله ﷻ، فهو ﷻ مقلب القلوب ومصرفها، وهو المتفضل بالإيمان واليقين وزيادتها، فالمتعين على المؤمن التوجه إلى الله ﷻ وحده، وسؤاله ذلك منه وحده، فلا مثبت إلا من ثبته الله، ولا محفوظ إلا من حفظه الله، ولا موفق إلا من وفقه الله، والمخذول من خذله الله.

يقول مطرف بن عبدالله بن الشخير رحمه الله تعالى: (تذاكرت ما جماع الخير. فإذا الخير كثير: الصيام والصلاة، وإذا هو في يد الله ﷻ، وإذا أنت لا تقدر على ما في يد الله، إلا أن تسأله فيعطيك، فإذا جماع الخير في الدعاء)[١].

وهذا هو هدي نبينا محمد ﷺ أكمل البشر إيماناً وهدىً وصلاحاً، وهو رسول الهداية والنور، ومع ذلك كان كثيراً ما يدعو بطلب الهداية والسداد، وتثبيت القلوب وسلامتها وإصلاحها وتطهيرها من أدناسها، وهكذا شأن أتباعه والمحبين له ولسنته، ومن أشهر الأدعية النبوية في هذا الشأن ما يلي:

- قوله ﷺ في دعائه: **«اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك»**[٢].
- قوله ﷺ في دعائه: **«اللهم اهدني وسددني، اللهم إني أسألك الهدى والسداد»**[٣].

---

(١) الإبانة، لابن بطة: (٢/ ١٩٥).
(٢) مسلم: (٢٦٥٤).
(٣) مسلم: (٢٧٢٥).

■ قوله ﷺ في دعائه: «رب تقبل توبتي، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي، واهد قلبي، وسدد لساني، وثبت حجتي، واسلل سخيمة قلبي»(١).

■ قوله ﷺ في دعائه: «اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني، أنت الحي الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون»(٢).

■ قوله ﷺ في دعائه: «اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر»(٣).

■ قوله ﷺ في دعائه: «اللهم حبِّب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكرِّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين»(٤).

(١) أبو داود: (١٥١٠)، والترمذي: (٣٥٥١) وحسنه، وصححه الألباني في صحيح الجامع: (٣٤٨٥).
(٢) مسلم: (٢٧١٧).
(٣) مسلم: (٢٧٢٠).
(٤) أحمد: (٣/ ٤٢٤)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي: (٣/ ٢٣).

■ قولـه ﷺ في دعائه: «اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين»[(١)].

■ قوله ﷺ في دعائه: «اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشـد، وأسـألك شـكر نعمتـك وحسـن عبادتك، وأسـألك قلباً سليماً ولسـانـاً صادقـاً، وأسأل من خير ما تعلـم، وأعـوذ بك من شر ما تعلم، وأسـتغفرك لما تعلم، إنك أنت علام الغيوب»[(٢)].

الوسيلة الثانية:

معرفـة الله عـز وجـل وتعظيمه وإجلاله ومحبتـه بمعرفة أسـمائه الحسـنى وصفاته العلى ولا سـيما أسـماءه ﷻ (السميع، البصـير، الرقيب، الشـهيد، العظيم، الكبير، الخبـير، اللطيف، الرحيـم، العزيز، الرحمـن، الرحيـم، الظاهر، الباطـن، الغني، الكريـم)، والتـي تثمـر في القلب الخشـية والخـوف والرجاء، والمحبة والتعظيم والإجلال، والتوكل والتسليم لأوامره ﷻ.

(١) النسائي: (٣/ ٥٤)، وصححه الألباني في صحيح النسائي: (١٢٣٧).
(٢) النسائي: (٣/ ٥٤)، وأحمد: (٤/ ١٢٥) ورجال أحمد ثقات، ورواه الترمذي في كتاب الدعوات، باب سؤال الثبات في الأمر.

يقـول الإمـام ابـن القيم رحمـه الله تعالى: (فـإن الله جل ثناؤه وتقدسـت أسماؤه إذا أراد أن يكرم عبده بمعرفته وجمع قلبـه على محبتـه، شرح صـدره لقبـول صفاته العـلى وتلقيها من مشـكاة الوحي، فإذا ورد عليه شيء منهـا قابله بالقبول، وتلقاه بالرضا والتسليم، وأذعن له بالانقياد، فاستنار به قلبه، واتسـع له صدره، وامتلأ به سروراً ومحبة... وليسـت حاجة الأرواح قـط إلى شيء أعظـم منها إلى معرفة بارئها وفاطرها، ومحبتـه وذكـره والابتهاج به، وطلب الوسـيلة إليـه والزلفى عنده، ولا سـبيل إلى هذا إلا بمعرفة أوصافه وأسـمائه، فكلما كان العبـد بها أعلم كان بالله أعرف، وله أطلب وإليه أقرب، وكلما كان لها أنكر كان بالله أجهل، وإليه أكره ومنه أبعد)[1].

ويقـول في موطـن آخر: (علـم العبد بتفـرد الرب تعالى بالـضر والنفـع، والعطـاء والمنـع، والخلـق والـرزق، والإحيـاء والإماتـة، يثمر له عبودية التـوكل عليه باطناً، ولوازم التوكل وثمراتـه ظاهراً. وعلمه بسـمعه تعالى وبـصره وعلمه، وأنه لا يخفى عليـه مثقال ذرة في السـموات والأرض، وأنه يعلم الـسر وأخفى، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، يثمر

(١) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية: (ص ١٦ ،١٨).

له حفظ لسانه وجوارحه وخطرات قلبه عن كل ما لا يرضي الله ﷻ، وأن يجعل تعلق هذه الأعضاء بما يحبه الله ويرضاه، فيثمر له ذلك الحياء باطناً، ويثمر له الحياء اجتناب المحرمات والقبائح. ومعرفته بغناه وجوده وكرمه وبره وإحسانه ورحمته، توجب له سعة الرجاء، ويثمر له ذلك من أنواع العبودية الظاهرة والباطنة بحسب معرفته وعلمه. وكذلك معرفته بجلال الله وعظمته وعزه تثمر له الخضوع والاستكانة والمحبة، وتثمر له تلك الأحوال الباطنة أنواعاً من العبودية الظاهرة هي موجباتها)[١].

ويتحدث في موطن ثالث عن التعبد لله تعالى بأسمائه الحسنى: «الأول والآخر والظاهر والباطن»، فيقول: (والتعبد بهذه الأسماء رتبتان: الرتبة الأولى أن تشهد الأولية منه تعالى في كل شيء، والآخرية بعد كل شيء، والعلو والفوقية فوق كل شيء، والقرب والدنو دون كل شيء، فالمخلوق يحجبه مثله عما هو دونه، فيصير الحاجب بينه وبين المحجوب، والرب جل جلاله ليس دونه شيء أقرب إلى الخلق منه. والمرتبة الثانية من التعبد أن يعامل كل اسم بمقتضاه. فيعامل سبقه

(١) مفتاح دار السعادة: (ص ٥١٠-٥١٣).

تعالى بأوليته لكل شيء، وسبقه بفضله وإحسانه الأسباب كلها، بما يقتضيه ذلك من إفراده وعدم الالتفات إلى غيره والوثوق بسواه، والتوكل على غيره... ثم تتعبد له باسمه الآخر بأن تجعله وحده غايتك التي لا غاية لك سواه، ولا مطلوب لك وراءه، فكما انتهت إليه الأواخر، وكان بعد كل آخر، فكذلك اجعل نهايتك إليه، فإن إلى ربك المنتهى، إليه انتهت الأسباب والغايات، فليس وراءه مرمى يُنتهَى إليه. وقد تقدم التنبيه على ذلك وعلى التعبد باسمه الظاهر. وأما التعبد باسمه الباطن فإذا شهدت إحاطته بالعوالم، وقرب العبيد منه، وظهور البواطن له، وبدو السرائر، وأنه لا شيء بينه وبينها، فعامله بمقتضى هذا الشهود، وطهر له سريرتك، فإنه عنده علانية، وأصلح له غيبك، فإنه عنده شهادة، وزك له باطنك، فإنه عنده ظاهر)[١].

ويقول العز بن عبدالسلام: (فهم معاني أسماء الله ﷻ وسيلة إلى معاملته بثمراتها من الخوف والرجاء والمهابة والمحبة والتوكل، وغير ذلك من ثمرات معرفة الصفات)[٢].

(١) طريق الهجرتين: (ص ٢٥، ٢٦).
(٢) شجرة المعارف: (ص ١).

ويقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالى: (إن الإيمان بأسماء الله الحسنى ومعرفتها يتضمن أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، وهذه الأنواع هي روح الإيمان ورَوْحه، وأصله وغايته، فكلما ازداد العبد معرفة بأسماء الله وصفاته ازداد إيمانه وقوي يقينه)[١].

واختم هذه الوسيلة من وسائل إصلاح السريرة ببعض النماذج من سيرة السلف الصالح، الذين عرفوا أسماء الله ﷻ، وتعبدوا الله تعالى بها، وظهرت آثارها في إصلاح بواطنهم وظواهرهم.

لما حضر معاذ بن جبل رضي الله عنه الموت، قال: (انظروا أصبحنا؟ فأتي فقيل: لم تصبح. فقال: انظروا أصبحنا؟ فأتي فقيل له: لم تصبح. حتى أتي في بعض ذلك. فقيل: قد أصبحت: قال أعوذ بالله من ليلة صباحها إلى النار، مرحباً بالموت مرحباً، زائر مغيب، حبيب جاء على فاقة، اللهم إني كنت أخافك، فأنا اليوم أرجوك. اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لجري الأنهار، ولا لغرس الأشجار، ولكن لظمأ الهواجر، ومكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر)[٢].

---

(١) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان (باختصار): (ص٤١).
(٢) حلية الأولياء: (١/ ٢٣٩).

عاد حماد بن سلمة سفيان الثوري، فقال سفيان: (يا أبا سلمة، أترى الله يغفر لمثلي؟ فقال حماد: والله لو خيرت بين محاسبة الله إياي وبين محاسبة أبوي، لاخترت محاسبة الله، وذلك لأن الله أرحم بي من أبوي)(١).

قال حميد الطويل لسليمان بن علي: عظني فقال: (لئن كنت إذا عصيت الله خالياً ظننت أنه يراك لقد اجترأت على أمر عظيم، ولئن كنت تظن أنه لا يراك فلقد كفرت)(٢).

وقال ابن خبيق: قال لي حذيفة المرعشي: إنما هي أربعة. عيناك ولسانك وهواك وقلبك. فانظر عينيك لا تنظر بهما إلى ما لا يحل لك، وانظر لسانك لا تقل به شيئاً يعلم الله خلافه من قلبك، وانظر قلبك لا يكن فيه غل ولا دغل على أحد من المسلمين، وانظر إلى هواك لا تهوى شيئاً يسخط الله ﷻ فما لم تكن فيك هذه الأربع الخصال، فالرماد على رأسك)(٣).

وعن حاتم الأصم قال: (تعاهد نفسك في ثلاث: إذا عملت فاذكر نظر الله إليك، وإذا تكلمت فاذكر سمع الله منك، وإذا سكت فاذكر علم الله فيك)(٤).

(١) سير أعلام النبلاء: (٧/ ٤٤٩).
(٢) إحياء علوم الدين: (٤/ ٣٩٨).
(٣) صفوة الصفوة: (٤/ ٢٦٨).
(٤) سير أعلام النبلاء: (١١/ ٤٨٦)

قال الخطيب: (أنبأنا الجوهري، أنبأنا المرزباني، حدثنا أحمد بن محمد بن عيسى حدثنا أبو العيناء قال: لما حج المهدي دخل مسجد رسول ﷺ فلم يبق أحد إلا قام إلا ابن أبي ذئب، فقال له المسيب بن زهير: قم هذا أمير المؤمنين. فقال: إنما يقوم الناس لرب العالمين. فقال المهدي: دعه فلقد قامت كل شعرة في رأسي)[١].

وقال إبراهيم بن الأشعث: (ما رأيت أحداً كان الله في صدره أعظم من الفضيل، كان إذا ذكر الله أو ذكر عنده أو سمع القرآن ظهر به الخوف والحزن، وفاضت عيناه وبكى، حتى يرحمه من بحضرته)[٢].

وعن معمر عن أيوب عن نافع أو غيره: أن رجلاً قال لابن عمر رضي الله عنهما: (يا خير الناس أو ابن خير الناس. فقال: ما أنا بخير الناس ولا ابن خير الناس، ولكني عبد من عباد الله، أرجو الله وأخافه، والله لن تزالوا بالرجل حتى تهلكوه)[٣].

(١) المرجع السابق: (٧/ ١٤٣).
(٢) حلية الأولياء: (٨/ ٨٤).
(٣) سير أعلام النبلاء: (٣/ ٢٣٦).

الوسيلة الثالثة:

قصر الأمـل والزهد في الدنيـا والتذكـر الدائم للموت ولليوم الآخر، والاستعداد للقاء الله ﷻ، ذلك لأن من أعظم ما يكدر القلوب ويفسـد السرائر الركون إلى الدنيا، والغفلة عـن الآخـرة، لأن القلب عندما يمتلأ بحـب الدنيا وإيثارها على الآخرة لا تجد المواعظ إليه سبيلا، بل تتوارد عليه الآفات والأمـراض حتى تكدره، ويصبح مظلـماً، لا يعرف معروفاً، لا ينكـر منكراً، إلا مـا أشرب من هواه. قـد أصبحت الدنيا همه، يحسـد عليها، ويحقد، ويشـح ويبخـل، ويحب ويبغض، ويفرح ويحزن من أجلها، وكفى بذلك مرضاً وهلاكاً للقلب وإفسـاداً للسريـرة. والعكـس من ذلـك حينما يمتـلأ القلب بذكـر الموت ومـا بعده من أمور الآخـرة، ويتجافى عن الدنيا وزينتها الفانية، فإن القلب يصفو ويستنير، والسريرة تصلح، وتثمر لصاحبها الثمار اليانعة في الدنيا والآخرة.

قـال أبو الـدرداء رضي الله عنه: (من أكثر ذكر المـوت قل فرحه وقـل حسـده)[١]. ولكـن كيـف يتـم للعبـد زهـده في الدنيا

(١) حلية الأولياء: (١/ ١١٧).

وإقبالـه على الآخـرة؟ يجيب الإمام ابن القيـم رحمه الله تعالى عـلى ذلـك، فيقول: (لا تتـم الرغبة في الآخـرة إلا بالزهد في الدنيا، ولا يستقيم الزهد في الدنيا إلا بعد نظرين صحيحين:

النظـر الأول: النظـر في الدنيـا وسرعـة زوالهـا وفنائهـا واضمحلالها ونقصها وخستها، وألم المزاحمة عليها والحرص عليهـا، وما في ذلك مـن الغصص والنغـص والأنكاد، وآخر ذلـك الزوال والانقطاع مع ما يعقب من الحسرة والأسـف، فطالبهـا لا ينفـك من هم قبل حصولها، وهـم في حال الظفر بها، وغم وحزن بعد فواتها. فهذا أحد النظرين.

النظر الثاني: في الآخرة وإقبالها ومجيئها ولا بد، ودوامها، وبقائهـا وشرف مـا فيها من الخيرات والمسرات، والتفاوت الـذي بينه وبين مـا هاهنا، فهي كما قـال ﷻ: ﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٧]، فهي خيرات كاملة دائمة، وهذه خيالات ناقصـة منقطعـة ومضمحلة. فإذا تم له هـذان النظران آثر ما يقتضي العقل إيثاره وزهد فيما يقتضي الزهد فيه)[١].

ويقول أيضاً: (فإن من اسـتعد للقاء الله انقطع قلبه عن الدنيا ومطالبها، وخمدت من نفسه نيرانُ الشهوات، وأخبتَ

(١) الفوائد: (ص١٧٧).

قلبُـه إلى ربِّه تعـالى، وعكفت همته على الله وعـلى محبته وإيثار مرضاته. واسـتحدث همَّةً أخرى وعلومًـا أخر، وولد ولادةً أخرى تكون نسـبةُ قلبه فيها إلى الدار الآخرة كنسـبة جسـمه إلى هـذه الـدار، بعـد أن كان في بطـن أمِّه، فيولـد قلبُه ولادةً حقيقيـة، كما ولد جسـمه حقيقـة. وكما كان بطـن أمه حجاباً لجسمه عن هذه الدار، فهكذا نفسه وهواه حجاب لقلبه عن الدار الآخرة، فخروج قلبه عن نفسـه بارزاً إلى الدار الآخرة كخروج جسمه عن بطن أمه بارزاً إلى هذه الدار. وهذا معنى مـا يذكر عن المسـيح ﷺ أنَّه قال: «يا بنـي إسرائيل، إنَّكم لن تلجوا ملكوتَ السماء حتَّى تولدوا مرَّتين».

ولَّـا كان أكثر النـاس لم يولدوا هذه الـولادة الثانية ولا تصوروها - فضلاً عن أن يصدقوا بها - فيقول القائل: كيف يولـد الرجل الكبير أم كيف يولد القلـب؟! لم يكن لهم إليها همَّـة ولا عزيمـة، إذ كيف يعزم على الشيء مـن لا يعرفه ولا يصدِّقه؟ ولكن إذا كُشِـفَ حجـاب الغفلة عن القلب صدَّق بذلك، وعلم أنَّه لم يولد قلبُه بعد.

والمقصـود أنَّ صـدق التأهّـب للقـاءَ الله هـو مفتاح جميع الأعمال الصالحة، والأحوال الإيمانية، ومقامات السالكين إلى

الله ومنازل السائرين إليه، من اليقظة والتوبة والإنابة والمحبة والرجاءِ والخشية والتفويض والتسليم وسائر أعمالِ القلوب والجوارح. فمفتاحُ ذلك كلّه صدقُ التأهب والاستعداد للقاءِ الله، والمفتاح بيد الفتَّاحِ العليم، لا إلهَ غيره ولا رب سواه)[١].

ويتحدث في موطن ثالث عن قصر الأمل ودوره في الزهد في الدنيا وصلاح القلوب، فيقول رحمه الله تعالى: (فأما قصر الأمل: فهو العلم بقرب الرحيل، وسرعة انقضاء مدة الحياة. وهو من أنفع الأمور للقلب. فإنه يبعثه على معافصة الأيام، وانتهاز الفرص التي تمر مَرَّ السحاب، ومبادرة طَيِّ صحائف الأعمال، ويثير ساكن عزماته إلى دار البقاء، ويحثه على قضاء جهاز سفره، وتدارك الفارط، ويزهده في الدنيا، ويرغبه في الآخرة. فيقوم بقلبه - إذا داوم مطالعة قصر الأمل - شاهدٌ من شواهد اليقين، يريه فناء الدنيا، وسرعة انقضائها، وقلة ما بقي منها، وأنه قد ترحلت مُدْبِرَة، ولم يبق منها إلا صُبابة كصبابة الإناء، يتصابُّها صاحبها، وأنها لم يبق منها إلا كما بقي من يوم صارت شمسه على رءوس الجبال،

(١) طريق الهجرتين: (١/ ٣٨١)، دار عالم الفوائد.

ويرى بقاء الآخرة ودوامها، وأنها قد ترحلت مقبلة، وقد جاء أشراطُها وعلاماتها، وأنه من لقائها كمسافر خرج صاحبه يتلقاه، فكل منهما يسير إلى الآخر، فيوشك أن يلتقيا سريعاً.

ويكفي في قصر الأمل قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧]، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٤٥]، وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦])[1]. أ.هـ

وما أجود شعره رحمه الله تعالى حين قال في ذلك:

والله لم تخرج إلى الدنيا للذة
عيشها أو للحطام الفاني
لكن خرجت لكي تعد الزاد
للأخرى فجئت بأقبح الخسران
أهملت جمع الزاد حتى فات
بل فات الذي ألهاك عن ذي الشان

(١) مدارج السالكين: (١/ ٤٤٩).

والله لــــو أن القلــــوب سليمــــة
لتقطعت أسفــــاً من الحرمــــان(١)

ومما له علاقة بالزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة المبادرة في تـدارك أوقـات العمر النفيسـة، والحذر مـن إهدارها فيما لا ينفـع، فضلاً عما يضر، فإن من الآفـات التي تضر بالقلب ضيـاع الأوقـات، قـال ابن القيم رحمـه الله تعـالى: (وكل آفة تدخل على العبد فسـببها ضياع الوقت وفساد القلب، وتعود بضياع حظه مـن الله ﷻ، ونقصان درجته ومنزلته عنده، وقال بعـض الشـيوخ: احـذروا مخالطة مـن تضيع مخالطتـه الوقت وتفسد القلب)(٢).

الوسيلة الرابعة:

مجالسـة الصالحين أصحـاب السرائر الصالحـة، والبعد عن أهل الدنيا وأصحاب القلوب المريضة.

روي عـن عمـر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قـال: (لولا ثلاث لما أحببت البقاء: لولا أن أحمل على جياد الخيل في سـبيل الله،

(١) نونية ابن القيم: (٢/ ٥٤٧).
(٢) رسالة من ابن القيم لأحد إخوانه: (ص ٣، ٤)، ت: عبدالله المديفر.

ومكابـدة الليل، ومجالسـة أقـوام ينتقون أطايـب الكلام كما ينتقى أطايب الثمر)[١].

وقال أيضاً: (اقتربوا من أفواه المطيعين واسـمعوا منهم ما يقولون، فإنهم تجلى لهم أمور صادقة، وذلك لقرب قلوبهم من الله)[٢].

ومـن أنفع المجالس وأصلحها مجالس أهل العلم والتقى لأنـه بالعلم الذي لديهم تحرق الشـبهات، وبالتقوى والورع وحسـن السريرة تحرق الشـهوات، وترى فيهـم القدوات في خوفهـم من الله تعالى، وتعظيمهـم له ﷻ ولأوامره ونواهيه، فـإذا زالت الشـبهات بالعلـم، والشـهوات بالتقوى صلحت السرائـر والقلوب. ومن علامة توفيـق الله ﷻ للعبد أن يرزقه أصحابـاً صالحـين، تذكـر رؤيتهـم الله ﷻ. ولا يتـم الانتفاع بمجالسـة الصالحين إلا بمفارقة أصحاب السوء وأصحاب السرائر الفاسـدة واعتزالهم، والحذر من كلامهم وكتاباتهم، التـي تملأ القلوب بالشـبهات والشـهوات، ويدخل في ذلك الإكثـار مـن قـراءة سـير الصالحـين الأتقياء والحـرص على الاقتداء واللحاق بهم.

(١) مدارج السالكين: (١/ ٤٤٩).

(٢) المرجع السابق.

الوسيلة الخامسة:

الإكثار من ذكر الله ﷻ، والأعمال الصالحة، وترك المعاصي.

وعد الله ﷻ عباده الذين يتقربون إليه بفعل ما يؤمرون به، وترك ما ينهون عنه، بالتثبيت والاستقامة على الصراط المستقيم، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ٦٦-٦٨].

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى عند هذه الآية: (فالخلق كلهم قسمان: موفق بالتثبيت ومخذول بترك التثبيت، ومادة التثبيت وأصله ومنشأه من القول الثابت وفعل ما أمر به العبد، فبهما يثبت الله عبده. فكل ما كان أثبت قولاً وأحسن فعلاً كان أعظم تثبيتاً.

قال تعـالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾، فأثبـت النـاس قلبـاً أثبتهـم قـولاً، والقول الثابت هو القول الحق والصدق)[1] أ.هـ.

وكـما جاء ذلـك في الحديـث القدسي الصحيـح والذي فيه: «... وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب مما افترضت عليه، ومـا يزال عبـدي يتقرب إليّ بالنوافل حتـى أحبه، فإذا أحببته كنت سـمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه...»[2] الحديث.

فمن هذا الحديث يتبين أثر الأعمال الصالحة من الفرائض والنوافل، ولا سيما المخفي منها في حفظ الله ﷻ لعبده المؤمن الذي هذا شأنه، وذلك بحفظ جوارحه وقلبه، فلا تمتد إلى ما يسـخط الله تعـالى، ومن أفضل الأعمال الصالحـة التي لها أثر في إصـلاح السرائر كثرة ذكر الله ﷻ في اليوم والليلة، والثناء عليه ﷻ وتحميده وتسبيحه وتمجيده واستغفاره.

(١) بدائع التفسير: (١/ ١٧).

(٢) البخاري، كتاب الرقاق: (٦٥٠٢).

فذكر الله ﷻ يذيب قسوة القلب ويزيل صدأه. قال رجل للحسن: يا أبا سعيد أشكو إليك قسوة القلب. قال: أذبه بالذكر)[(١)].

كما أن في ذلك أكبر العون من الله تعالى لعبده، وحفظه له من الزيغ والانحراف باطناً وظاهراً، فقد جاء في الحديث القدسي: **«أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم....»**[(٢)] الحديث.

وأفضل الذكر قراءة القرآن وتدبره، حيث إن في ذلك حياة القلوب وصلاحها واطمئنانها.

ومن أسباب صلاح السريرة البعد عن الذنوب والمعاصي، لأن من عقوبات الذنوب مرض القلب وتكدره وفساده، لا سيما إذا تراكمت عليه الذنوب، وحصل الإصرار عليها، يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: (ومن عقوباتها أنها تصرف القلب عن صحته واستقامته إلى مرضه وانحرافه...

---

(١) الوابل الصيب: (ص ٦٢).

(٢) البخاري، كتاب التوحيد: (٧٤٠٥)، ومسلم: (٢٦٧٥).

فإن تأثير الذنوب في القلوب كتأثير الأمراض في الأبدان، بل الذنوب أمراض القلوب وداؤها، لا دواء لها إلا تركها... ولا تحسب أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤]، مقصور على نعيم الآخرة وجحيمها فقط، بل في دورهم الثلاثة هم كذلك - أعني دار الدنيا ودار البرزخ ودار القرار - فهؤلاء في نعيم، وهؤلاء في جحيم، وهل النعيم إلا نعيم القلب)[١].

الوسيلة السادسة: محاسبة النفس:

قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

وقال الرسول ﷺ: **«الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله ﷻ»**[٢].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، فإنه أهون عليكم

(١) الداء والدواء: (ص ٧٨، ٧٩) باختصار.
(٢) الترمذي، باب الكيس من دان نفسه، وحسنه الترمذي.

في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨])[١].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوما، وخرجت معه، حتى دخل حائطاً، فسمعته يقول وبيني وبينه جدار، وهو في جوف الحائط: (عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بخ. والله لتتقين الله ابن الخطاب أو ليعذبنك)[٢].

وعن الحسن رحمه الله تعالى قال: (إن العبد لا يزال بخير ما كان له واعظ من نفسه، وكانت المحاسبة من همته)[٣].

وفي ضوء هذه النصوص والآثار يتبين لنا أهمية محاسبة النفس، وأثر ذلك في إصلاح الأحوال والقلوب، والتخلص من آفاتها، ومما يفسدها، كما يتبين لنا أن فساد السريرة إنما يحصل بترك المحاسبة والاسترسال مع النفس وهواها.

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى عدة مصالح في محاسبة النفس، منها: (الاطلاع على عيوب النفس، ومن لم يطلع على عيب نفسه لم يمكنه إزالته، فإذا اطلع على عيبها مقتها في ذات

(١) محاسبة النفس، لابن أبي الدنيا: (ص ٣٥).
(٢) المصدر السابق.
(٣) محاسبة النفس، لابن أبي الدنيا: (ص ٣٦).

الله تعالى. وقد روى الإمام أحمد عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس في جنب الله، ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشد مقتاً... وقال يونس بن عبيد: إني لأجد مائة خصلة من خصال الخير ما أعلم أن في نفسي منها واحدة... ومن فوائد محاسبة النفس: أنه يعرف بذلك حق الله تعالى، ومن لم يعرف حق الله تعالى عليه فإن عبادته لا تكاد تجدي عليه شيئاً، وهي قليلة المنفعة جدًّا)(١).

وهذه أبيات للإمام ابن القيم رحمه الله تعالى يحاسب فيها نفسه، ويزري عليها، وهو من هو علماً وزهداً وإمامة:

(بُنَيَّ أبي بكر(٢) كثير ذنوبه
فليس على من نال من عرضه إثم
بُنَيَّ أبي بكر جهول بنفسه
جهول بأمر الله أنى له العلم
بني أبي بكر غدا متصدراً
يعلِّم علماً وهو ليس له علم

(١) انظر: إغاثة اللهفان: (١/ ٧٨-٨٠).
(٢) (بني أبي بكر) يقصد ابن القيم نفسه، وأبو بكر كنية والده.

بنـي أبـي بكر غـدا متمنيـاً
وصـال المعـالي والذنـوب لـه هـمُّ
بنـي أبـي بكـر يـروم ترقيـا
إلى جنـة المـأوى وليـس لـه عـزم
بنـي أبي بكـر يـرى الغـرم في الذي
يـزول ويفنـى والـذي تركـه الغنـم
بنـي أبـي بكـر لقـد خـاب سـعيه
إذا لم يكـن في الصالحـات لـه سـهم
بنـي أبـي بكـر كما قـال ربـه
هلـوع كنـود وصفه الجهـل والظلم
بنـي أبـي بكـر وأمثالـه غـدوا
بفتواهـم هـذي الخليقـة تأتـم
وليـس لهـم في العلـم بـاع ولا التقى
ولا الزهـد والدنيـا لديهـم هـي الهـم
فوالله لـو أن الصحابـة شـاهـدوا
أفاضلهم قالوا هم الصم والبكم)[1]

(١) الوافي بالوفيات: (١/ ٢٦١).

وهذا هو ابن الجوزي رحمه الله تعالى يحاسب نفسه، فيقول: (تفكرت في نفسي يوماً تفكر محقق، فحاسبتها قبل أن تحاسب، ووزنتها قبل أن توزن، فرأيت اللطف الرباني، من بدء الطفولة وإلى الآن، أرى لطفاً بعد لطف، وستراً على قبيح، وعفواً عما يوجب عقوبة، وما أرى لذلك شكراً إلا باللسان.

ولقد تفكرت في خطايا لو عوقبت ببعضها لهلكت سريعاً، ولو كشف للناس بعضها لاستحييت، ولا يعتقد معتقد عند سماع هذا أنها من كبائر الذنوب، حتى يظن فيَّ ما يظن في الفساق، بل هي ذنوب قبيحة في حق مثلي، وقعت بتأويلات فاسدة، فصرت إذا دعوت أقول: اللهم بحمدك وسترك عليَّ اغفر لي، ثم طالبت نفسي بالشكر على ذلك فما وجدته كما ينبغي، ثم أنا أتقاضى منه مراداتي، ولا أتقاضى نفسي بصبر على مكروه، ولا بشكر على نعمة، فأخذت أنوح على تقصيري في شكر المنعم، وكوني أتلذذ بإيراد العلم من غير تحقيق عمل به.

وقد كنت أرجو مقامات الكبار، فذهب العمر وما حصل المقصود، فوجدت أبا الوفاء بن عقيل قد ناح نحو ما

نحت، فأعجبتني نياحته فكتبتها هاهنا، قال لنفسه: يا رعناء تقوِّمين الألفاظ ليقال: مناظر. وثمرة هذا أن يقال: يا مناظر، كما يقال للمصارع الفاره. ضيعت أعز الأشياء وأنفسها عند العقلاء، وهي أيام العمر حتى شاع لك بين من يموت غداً اسم المناظر، ثم ينسى الذاكر والمذكور إذا درست القلوب! هذا إن تأخر الأمر إلى موتك، بل ربما نشأ شاب أفره منك فموهوا له وصار الاسم له. والعقلاء عن الله تشاغلوا بما - إذا انطووا - نشرهم وهو العمل بالعلم، والنظر الخالص لنفوسهم. أف لنفسي، وقد سطرت عدة مجلدات في فنون العلوم وما عبق بها فضيلة، إن نُوظِرَت شَمَخَتْ، وإن نُوصِحتْ تَعَجْرفت، وإن لاحت الدنيا طارت إليها طيران الرخم، وسقطت عليها سقوط الغراب على الجيف، فليتها أخذت أخذ المضطر من الميتة. توفر في المخالطة عيوباً تبلى، ولا تحتشم نظر الحق إليها. وإن انكسر لها غرض تضجرت، فإن امتدت بالنعم اشتغلت عن المنعم.

أف والله مني، اليوم على وجه الأرض وغداً تحتها، والله إن نتن جسدي بعد ثلاث تحت التراب أقل من نتن خلائقي

وأنـا بـين الأصحاب، والله إنني قد بهرني حلم هـذا الكريم عني، كيف سترني وأنا أتهتك، ويجمعني وأنا أتشتت؟! وغداً يقـال: مات الحبر العـالم الصالح، ولو عرفـوني حق معرفتي بنفـسي مـا دفنـوني، والله لأنادين عـلى نفسي نداء المتكشـفين معائـب الأعداء، ولأنوحن نوح الثاكلـين إذ لا نائح لي ينوح عليّ لهذه المصائب المكتومة، والخلال المغطاة التي قد سـترها من خبرها، وغطاها من علمها.

والله ما أجد لنفسي خلة أستحسن أن أقول متوسلاً بها: اللهـم اغفـر لي كـذا بكـذا. والله ما التفـت قط إلا وجدت منـه ﷻ بِـرّاً يكفيني ووقايـة تحميني مع تسـلط الأعداء، ولا عرضت حاجة فمددت يدي إلا قضاها. هذا فعله معي وهو رب غنـي عنـي، وهذا فعلى وأنا عبد فقـير إليه، ولا عذر لي، فأقول: ما دريت أو سهوت. والله لقد خلقني خلقاً صحيحاً سـليماً، ونور قلبي بالفطنة، حتـى إن الغائبات، والمكتومات تنكشف لفهمي.

فواحسرتاه على عمر انقضى فيما لا يطابق الرضا، واحرماني لمقامـات الرجال الفطناء، يا حـسرتي على ما فرطت في جنب الله، وشماتة العدو بي، واخيبة من أحسن الظن بي إذا شهدت

الجوارح عليَّ، واخذلاني عند إقامة الحجة، سخر والله مني الشيطان، وأنا الفطن. اللهم توبة خالصة من هذه الأقذار، ونهضة صادقة لتصفية ما بقي من الأكدار، وقد جئتك بعد الخمسين، وأنا من خَلِقِ المتاع، وأبى العلم إلا أن يأخذ بيدي إلى معدن الكرم، وليس لي وسيلة إلا التأسف والندم، فوالله ما عصيتك جاهلاً بمقدار نعمك، ولا ناسياً لما أسلفت من كرمك، فاغفر لي سالف فعلي)[1] أ.هـ.

ومما يعين على المحاسبة أن يخصص المرء لنفسه أوقات يخلو فيها بنفسه، ويناجي فيها ربه ﷻ ويقلل فيها من الخلطة بالناس، ومن أفضل هذه الأوقات ما بعد صلاة الفجر إلى طلوع الشمس، وما قبل صلاة المغرب حتى تغرب الشمس، وشيء من الدلجة في آخر الليل. وقد جاء في فضل هذه الأوقات وذكر الله فيها أحاديث، من أشهرها قوله ﷺ: «**إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة، وشيء من الدلجة**»[2]، والغدوة أول النهار، والروحة آخره، والدلجة آخر الليل.

---

(١) صيد الخاطر: (ص ٤٦٤).

(٢) البخاري: (٣٩)، ومسلم: (٢٨١٦).

ومـن أفضـل أوقـات الخلوة والمحاسـبة اعتـكاف العشر الأواخر مـن رمضان ففيها تتحقق المحاسـبة، وفوائد أخرى تصلح بها القلوب وتتنقى بها السرائر، ومن هذه الفوائد:

- التفـرغ للنفـس ومحاسـبتها، وتفقـد أخطائهـا ومثالبهـا ومعاصيهـا في ماضي حياتهـا، وأثر ذلك في صـدق التوبة، وتطامن النفس وتواضعها، وذلك عندما يعلم المحاسـب لنفسه أنها كلها عورة وضعف وخطيئة.
- الشـعور الشـديد بالفاقـة والفقـر إلى الله ﷻ، والـضرورة القصوى لعونـه ﷻ وإغاثته وتوفيقه، والشـعور بضعف النفس وخطر الاعتماد عليها.
- فراغ القلب في الاعتكاف من مشـاغل الدنيا ومشكلاتها، وأثـر ذلك في مـلء القلب بذكـر الله ﷻ، والإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور.
- الحيـاة مـع كلام الله ﷻ والعيـش مـع كتابـه العزيز، وما يحـوي من ذكر للآخرة ومـا فيها، وذكر أنبيائـه وأوليائه، وأثر ذلك في محبتهم والشوق إلى مصاحبتهم والتأسي بهم، وبما أصابهم في سبيل الله ﷻ، وكيف صبروا وصابروا مع

مـا في القـرآن من ذكـر الله ﷻ وأسـمائه وصفاته، والأجر العظيم في تلاوته والقيام به، آناء الليل وأطراف النهار.

- الانقطـاع عن الناس وقلة الاتصـال بهم وبكلامهم، وأثر ذلـك في صفاء القلب وتقبلـه للمواعظ والزواجر، مع ما في ذلك من ترك لآفات اللسان التي قل من يسلم منها.
- في الاعتـكاف نقلـة من حياة الترف مـع الأهل والأولاد في المسـاكن المترفـة والفـرش الناعمـة إلى حيـاة الاعتزال والمسـكنة والفراش الخشـن والأكل القليل، وهذا بدوره يؤثـر في حيـاة المعتكـف ونظرتـه للدنيـا، مع مـا يصاحب ذلك من النوم القليـل، فكل ذلك يؤدي بإذن الله تعالى إلى تقوية العزيمة وتنشـيط النفـس، لأن النفس تثقل مع كثرة الفضول من الطعام والنوم والكلام والخلطة.
- في الاعتـكاف فـرص للاسـتزادة مـن الصالحـات: كنوافل الصلاة، والذكر، وقراءة القرآن، لوجود التفرغ التام.
- في الاعتـكاف وحبـس النفس في مكان معـين مجال لتربية النفـس عـلى الصـبر والمصابرة، واكتشـاف قـوة التحمل، والصـبر عند النفس، وفي هـذا ترويض للنفس وتوطئة لها

عـلى النقلات المفاجئة - نسـأل الله ﷻ العافية والثبات - كـما أن في ذلك تذكـراً للصلحاء المبتلـين، الذين يمضون في معتقلاتهـم الأشـهر والسـنوات، فيتوجـه بالدعاء لهم بالتثبيت وسؤال الفرج لهم.

- كما أن في جلوس المعتكف في خلوته ورؤيته نفسـه وحيداً بعـد أن ينفـضّ الناس ويرجعـوا إلى بيوتهـم، إن في ذلك أثـراً بالغـاً في تذكر ذلك اليوم، الذي يوضـع فيه العبد في قـبره وحيـداً فريداً، بعد أن يرجع عنه مشـيعوه إلى أهليهم وبيوتهـم، وهذا له أثر في تذكر الموت والقبر ووحشـته، مما يعود بالفائدة على النفس بالاستعداد لهذا المصرع، وسؤال الله ﷻ حسـن الخاتمة، وهذا كله يربي على الزهد في الدنيا، وأنها ظل زائل ومتاع الغرور.

- في الانقطـاع عـن الأهل والأولاد في المعتكف مع الشـوق إليهم، تذكير بالموت والانقطاع الطويل عنهم، وهذا بدوره ينعكـس على بذل الجهد في إصـلاح النفس والأهل، لعل الله ﷻ أن يجمـع الشـمل في جنـات النعيم، التـي لا ينفد نعيمها ولا يفترق أهلها.

- في الاعتكاف تعود على أعمال فاضلة، يحصل فيها التفريط غالباً عند الكثير: كأداء السنن الرواتب، والصف الأول، والطمأنينة في الصلاة، وأداء الأذكار جميعها، وذلك لعدم المشاغل والمشكلات التي تصرف المصلي عن هذه الفضائل أو بعضها، ولعلها أن تكون ديدنه بعد الخروج من المعتكف.
- في الاعتكاف يحصل محاسبة النفس في علاقتها بالخلق وحقوقهم، بداية من الوالدين والأقارب والتقصير الحاصل نحوهم، وكذلك حقوق الآخرين، وما يحمل في القلب نحوهم، هل هو النصح والمحبة أم الغش والحقد والحسد. وأكتفي بهذا القدر من منافع الاعتكاف، ذكرته هنا بمناسبة الحديث عن محاسبة النفس.

الوسيلة السابعة: الدعوة إلى الله ﷻ والجهاد في سبيله:

إن في ممارسة الدعوة إلى الله عز وجل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وسيلة لتزكية النفوس ومحاسبتها وتفقدها، حتى لا تقع في التناقض والاضطراب، ذلك أن الداعية إلى الله ﷻ وهو يدعو الناس إلى الخير وينهاهم عن الشر يبدأ

بنفسه وإصلاحها، حتى لا يكون من الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، وهذا باب من أبواب النفاق، وبذلك يسعى الداعية لإصلاح باطنه، ليكون متوافقاً مع ظاهره، وفي هذا إصلاح للسريرة، وكذلك الحال في الجهاد في سبيل الله ﷿، فصلاح السرائر فيه أعظم وأكثر، إذ إن المجاهد قد عقد العزم على بيع نفسه لله ﷿، ولا يصح البيع إلا بنقاء السريرة وإخلاص الجهاد لله ﷿، ففي الجهاد تربية على الإخلاص، والزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة، واليقين وصدق التوكل على الله ﷿، والخوف منه وحده، وهذه كلها من مقومات وموجبات السريرة الصالحة. ولا تبلغ هذا الأعمال القلبية ذروتها في النفس إلا في ذروة سنام هذا الدين، ألا وهو الجهاد في سبيل الله ﷿.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: (وفي الجهاد أيضاً حقيقة الزهد في الحياة الدنيا وفي الدار الدنيا وفيه أيضاً حقيقة الإخلاص، فإن الكلام فيمن جاهد في سبيل الله، لا في سبيل الرياسة، ولا في سبيل المال، ولا في سبيل الحمية... وأعظم مراتب الإخلاص تسليم النفس والمال للمعبود)[1].

(١) مجموع الفتاوى: (٢٨/ ٤٤٢).

وقال أيضاً: (ولهذا كان الجهاد سنام العمل وانتظم سنام جميع الأحوال الشريفة، ففيه سنام المحبة كما في قوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾، وفيه سنام التوكل وسنام الصبر فإن المجاهد أحوج الناس إلى الصبر والتوكل)[١].

(١) المرجع السابق.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، الذي بنعمته تتم الصالحات، والشكر له ﷻ على توفيقه وامتنانه بالفراغ من الكتابة في هذا الموضوع المهم، والذي يتعلق بالقلوب وصلاحها، أسأل الله ﷿ أن يجعله خالصاً لوجهه نافعاً لعباده، كما أسأل الله ﷻ أن يرزقني وإخواني المسلمين صلاح السريرة والعلانية، وأن يختم لنا برضوانه وجنته، إنه سميع قريب مجيب. وقد تطرقت في هذا الموضوع إلى أهميته وأهمية العناية بشأن البواطن والسرائر، وذكرت ما ورد في ذلك من الآيات والأحاديث والآثار، كما ذكرت فيه ما عَنَّ في الخاطر من علامات السريرة الصالحة، وبعض ثمارها في الدنيا والآخرة، كما ذكرت فيه بعض الأسباب والوسائل المعينة على إصلاح السرائر.

وفي ختام هذه الدراسة أود ذكر بعض التنبيهات المتعلقة بإصلاح السريرة، ينبغي التنويه عليها:

التنبيه الأول:

الحذر من اليأس في إصلاح السريرة، ولا سيما حينما يحاسب الواحد منا نفسه ويفتش في قلبه، فيجد من الآفات

ما قد يدخل من خلالها الشيطان، فيخيل للإنسان استحالة الإصلاح، فيحصل اليأس والبقاء على سوء الحال، بل قد تزيد وتتفاقم الأمراض لعدم علاجها والسعي في التخلص منها، وهذا ما يريده الشيطان، فينبغي الحذر من هذا الأمر، وسد هذا الباب على الشيطان، والاستغاثة بالله ﷻ في إصلاح الباطن والظاهر، ومن يصدق الله ﷻ يصدقه الله جل وعلا.

التنبيه الثاني:

إن العناية بالسرائر والبواطن لا يعني أبداً إهمال الأعمال الظاهرة وأعمال الجوارح، لأن الظاهر دليل على الباطن، فإذا صلح الباطن صلح الظاهر، وإصلاح الظاهر دليل على صلاح الباطن في الغالب، والإيمان قول وعمل، قول القلب وعمله، وقول اللسان، وعمل الجوارح. وقد مر بنا في مبحث أسباب صلاح السرائر: أثر الأعمال الصالحة الظاهرة في إصلاح القلوب وتزكية النفوس.

التنبيه الثالث:

الحذر من الغلو والوسوسة في اتهام النفس ومقتها وذمها، وذكر آفات القلوب وإعلام الناس بها، بقصد الإزراء

على النفس وبيان حقيقتها، وأنها ليست كما يظن به الظانون من الخير. فالعبد يحمد ربه على الستر، ويستعين بالله ﷻ في إصلاح سريرته، وشأنه كله، ولا يدعي ما ليس فيه.

ويفصل الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى المذموم من هذا الأمر والممدوح، فيقول: (سئل الحارث بن أسد عن علامات الصادق؟ فقال: أن لا يبالي أن يخرج كل قدر له في قلوب الخلق من أجل صلاح قلبه، ولا يحب اطلاع الناس على اليسير من عمله.

وهذا يحمد في حال، ويذم في حال، ويحسن من رجل، ويقبح من آخر. فيحمد إذا أظهر ما يجوز إظهاره، ولا نقص عليه فيه، ولا ذم من الله ورسوله، ليكتم به حاله وعمله، كما إذا أظهر الغنى وكتم الفقر والفاقة، وأظهر الصحة وكتم المرض، وأظهر النعمة وكتم البلية. فهذا كله من كنوز الستر، وله في القلب تأثير عجيب يعرفه من ذاقه. وشكى رجل إلى الأحنف بن قيس شكاة، فقال: يا ابن أخي، قد ذهب ضوء بصري من عشرين سنة، فما أخبرت به أحداً.

وأما الحال التي يُذمُّ فيها: فأن يظهر ما لا يجوز إظهاره، ليسيء به الناسُ الظن، فلا يعظموه. كما يذكر عن بعضهم:

أنه دخل الحمام، ثم خرج وسرق ثياب رجل، ومشى رويداً. حتى أدركوه فأخذوها منه وسبوه. فهذا حرام لا يحل تعاطيه، ويقبح أيضاً من المتبوع المقتدى به ذلك. بل وما هو دونه، لأنه يغر الناس، ويوقعهم في التأسي بما يظهره من سوء.

فالملامتية نوعان: ممدوحون أبرار، ومذمومون جهال. وإن كانوا في خفارة صدقهم. فالأولون: الذين لا يبالون بلوم اللوم في ذات الله، والقيام بأمره، والدعوة إليه، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖ﴾، فأحب الناس إلى الله: من لا تأخذه في الله لومة لائم. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا تأخذه في الله لومة لائم.

والنوع الثاني المذموم: هو الذي يظهر ما يلام عليه شرعاً من محرم أو مكروه. ليكتم بذلك حاله. وقد قال النبي: «**لا ينبغي للمؤمن أن يُذل نفسه**»[(١)][(٢)].

(١) مصنف عبد الرزاق (٢٠٧٢١)، والترمذي: (٦٧).
(٢) مدارج السالكين: (٣/ ١٧٨، ١٧٩)، (لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه)، صححه الألباني في صحيح الترمذي: (٢٢٥٤)، وفي صحيح الجامع: (٧٧٩٧).

التنبيه الرابع:

الحـذر مـن الحكـم على بواطـن النـاس من بعـض أعمالهم وأقوالهـم الظاهـرة فإن مـا في القلوب والسرائـر لا يعلمه إلا الله ﷻ، وقـد يكـون في قلـب رجل من الصـلاح والخير ما لا يعلمـه النـاس ولكن الله يعلمـه، ونحن لم نؤمر أن نشـق عن قلوب الناس إلا إذا ظهرت قرينة لا تحتمل اللبس من قول أو فعل يدل على فساد في الباطن. ولذا ينبغي للعبد أن لا يرى له فضل على أحد من المسـلمين المسـتورين في أحوالهم، بمجرد أن يـرى الإنسـان من نفسـه فضـلاً في عبادة أو عمـل صالح، فقـد يكون عند المفضول خبيئة مـن عمل صالح لا يعلمها إلا الله ﷻ، وقد لا يكون عنده كثير عبادة ونوافل ولكن قام في قلبه من الإخلاص والإخبات واليقين والمحبة والخوف والرجاء ما ليـس عند الفاضـل، فيكون بذلك أقـرب إلى الله ﷻ ممن فاقه كثرة في الأعمال، والمقصود أن يطامن العبد من نفسه ولا يحتقر غيره، فالعبرة بما في القلوب، وهذا لا يعلمه إلا علام الغيوب.

التنبيه الخامس:

تركز الحديث في هذه الدراسة على السرائر عند الأفراد، وهـذا هو مقصـد هذه الدراسـة، ولكن يحسـن التنبيه في هذه

الخاتمة إلى السرائر في إطار الدول والمؤسسات والطوائف والملل. فكم من الدول والطوائف لها ظاهر وباطن ظاهرها فيه الرحمة وباطنها فيه العذاب، ولا سيما في واقعنا المعاصر، عصر اللبس والتضليل، حيث يبدي فيه أصحاب السياسات والملل الباطنة للناس ما لا يخفون من النفاق وخبث الطوية والعقائد الفاسدة، ولكن يأبى الله عز وجل إلا أن يفضح سرائرهم، ويبدي للناس خبث بواطنهم وكذبهم وتدجيلهم، بما يظهره ﷻ على فلتات ألسنتهم ومواقفهم، بما يقدره من أحداث وابتلاءات وفتن، يتميز فيها الخبيث من الطيب.

ومن أبرز هذه الطوائف الباطنية رافضة العصر المحترقين حقداً على المسلمين الموحدين، فإن من أصول مذهبهم التقية، وهي تعني أن يخفوا عقائدهم الباطنة ويظهروا خلافها، خداعاً للمسلمين، فأبى الله ﷷ إلا أن يفضحهم، ويكشف حقيقتهم وعقائدهم الباطنة للناس، وذلك بما قدره ﷻ من أحداث وابتلاءات موجعة على أهل السنة في بلاد الشام وغيرها حيث كشفوا عن أقنعتهم، وظهر مشروعهم الباطني في المنطقة، حيث تحالف رافضة إيران والعراق وحزب الشيطان في لبنان مع النصيرية لحرب أهل

السنة وإقامة دولتهم الباطنية في المنطقة. وهذا من الحكم البالغة التي يحمد الله ﷻ عليها في هذه الأحداث حيث زال اللبس عن المخدوعين بتقية الروافض وفي هذا خير عظيم. ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين.

والمقصود التنبيه إلى سرائر وأسرار الدول والطوائف والمؤسسات التي تبطن ما لا تظهر، والتنبيه إلى خطرها والحذر من خداعها، ففساد السرائر عند الطوائف والهيئات الاجتماعية أخطر بكثير من فسادها على مستوى الأفراد، لأن فساد الطوية عند الفرد يكون في الغالب على نفسه، أما فساد الدول والطوائف فيتعدى إلى الأمة بأسرها.

التنبيه السادس:

أوجه في هذا التنبيه نصيحة إلى نفسي وإخواني الدعاة والمجاهدين في سبيل الله تعالى: بأن نعتني بإصلاح سرائرنا، وتفقدها بين حين وآخر، والمسارعة إلى إصلاح ما فسد منها، وأن لا نجعل خلافنا في وجهات النظر سبباً في الفرقة والشحناء فإن في هذا دليلاً على فساد في السرائر، وهذا باب من أبواب الشيطان، وآفة من آفات القلوب، ولا سيما بين أصحاب المنهج الواحد، وقدوتنا في ذلك أصحاب رسول الله ﷺ

وسلف الأمة الصالح، حيث اختلفوا في بعض المسائل ولم يتفرقوا، بل بقيت المحبة والألفة والاجتماع بينهم، متعاونين على البر والتقوى.

وقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في كتابه الاستقامة: (أن الاجتهاد السائغ لا يبلغ مبلغ الفتنة والفرقة إلا مع البغي، لا لمجرد الاجتهاد)[١]، والبغي آفة من آفات القلب، وعلامة على فساد في السريرة. قال يونس الصدفي: ما رأيت أعقل من الشافعي، ناظرته يوماً في مسألة، ثم افترقنا، ولقيني فأخذ بيدي، ثم قال: يا أبا موسى ألا يستقيم أن نكون إخوانا وإن لم نتفق في مسألة)[٢].

هـذا إذا كان الخلاف بين أهل الحق والعقيدة الصحيحة، أما إذا كان الخلاف مع ملل الكفر والبدع المغلظة فهو متعين وممدوح، وكذلك ما يترتب عليه من المنابذة لهم والافتراق معهم.

وبعد...

فهـذا ما منَّ الله ﷻ به ويسره من الكتابة في هذا الموضوع المهم، فما كان فيه من صواب فمن الله وحده، فهو

---

(١) انظر الاستقامة: (١/ ٣١).

(٢) سير أعلام النبلاء: (١٠/ ١٦).

المـان بذلك والموفق لـه، وما كـان فيـه من خطـأ فمني ومن الشـيطان، وأسـتغفر الله ﷻ منـه، والحمـد لله رب العالمين، وصلى الله وسـلم وبارك على عبده ورسـوله نبينـا محمد وآله وصحبه أجمعين.

في يوم الاثنين ٦/ ١٢/ ١٤٣٣هـ

فهرس المجلد الرابع عشر

الموضوع الصفحة

المقدمة ٥

أهمية الموضوع ٩

• الفصل الأول:

المقصود بالسريرة وإصلاحها ١٧

• الفصل الثاني:

ذكر بعض الآيات والأحاديث والآثار الواردة في العناية بالسرائر ... ٣١

أولاً: ذكر الآيات ٣١

ثانياً: ذكر بعض الأحاديث ٤٣

ثالثاً: ذكر الآثـــار ٤٩

• الفصل الثالث:

من علامات صلاح السريرة وفسادها ٦١

١ - الإخلاص والصدق ٦٢

أ) ابتغاء وجه الله والخلوص من الرياء ٦٦

ب) المحبة لعمل الخلوة والخبيئة الصالحة ٧٥

جـ) موافقة الباطن للظاهر وعدم مخالفة السريرة للعلانية ٨٢

د) الخوف من أن ترد الأعمال ٨٩

هـ) الفرار من العجب وتزكية النفس ٩١

و) مجاهدة هوى النفس وجعله تبعاً للحق ٩٥

٢- الانشغال بالنفس وإصلاحها وترك ما لا يعني ١٠٥

٣- إذ رؤي صاحب السريرة ذكر الله عز وجل ١٠٧

٤- تعظيم الله عز وجل وتعظيم حرماته ١١٠
٥- التصديق بالخبر والإذعان للأمر ١١٤
٦- أداء الأعمال الصالحة وترك المنهيات تعبداً لله عز وجل
محبة وخوفاً ورجاءً ١١٧
٧- التواضع للخلق والحق ١٢٢
نماذج من تواضع السلف للحق ١٢٦
نماذج من تواضع السلف للخلق ١٣٠
٨- محبة الخير لجميع المسلمين والحرص على اجتماعهم
والسلامة من الحسد ١٣٤
٩- العدل والإنصاف ١٤١
نماذج من عدل السلف مع مخالفيهم ١٥٢
١٠- الصدق في الحديث والوفاء بالعهد ١٦٢
١١- صدق التوكل على الله عز وجل ١٦٣
١٢- كثرة ذكر الله عز وجل واستغفاره ١٦٣
١٣- الدعوة إلى الله عز وجل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ... ١٦٤
• الفصل الرابع:
من ثمرات السريرة الصالحة
١- محبة الله عز وجل ومعيته لصاحب السريرة الصالحة ١٦٧
٢- قبول الأعمال الصالحة ومضاعفة الحسنات ١٦٨
٣- القبول بين الناس ومحبتهم له ١٧٨
٤- حسن الخاتمة ١٨٣

٥- تفريج الكروب ١٨٥
٦- الطمأنينة والسكينة والثبات ١٨٧
٧- الهداية للحق والسداد في المواقف ١٩٠

• الفصل الخامس:

من أسباب صلاح السريرة

١- دعاء الله عز وجل وسؤاله إصلاح السريرة ١٩٣
٢- معرفة أسماء الله الحسنى والتعبد لله بها ١٩٦
٣- قصر الأمل والزهد في الدنيا ٢٠٣
٤- مجالسة الصالحين أهل السرائر الصالحة ٢٠٨
٥- الإكثار من ذكر الله عز وجل ونوافل العبادات ٢١٠
٦- محاسبة النفس ٢١٣
فوائد الاعتكاف والخلوة ٢٢١
٧- الدعوة والجهاد في سبيل الله تعالى ٢٢٤
الخاتمة : وفيها تنبيهات : ٢٢٧
التنبيه الأول ٢٢٧
التنبيه الثاني ٢٢٨
التنبيه الثالث ٢٢٨
التنبيه الرابع ٢٣١
التنبيه الخامس ٢٣١
التنبيه السادس ٢٣٣
الفهرس ٢٣٧